الدكتور عبد العزيز الدوري

مقدمة في تاريخ صدر الإسلام

منشورات مكتبة المثنى - بغداد
تلفون ٣٥٨٨

مطبعة المعارف - بغداد

تصدير واهداء

هـذه آراء وملاحظات عرضت لي خلال فترة تدريسي للتاريخ الاسلامي (بين شتاء ١٩٤٣ وصيف ١٩٤٩) ، أدونها ولا يعنيني مصيرها ، فهي للمناقشة ولا تتعدى كونها آراء ، وكل ما أرجوه هو أن يشترك معي القارئ في التفكير بما تعالجه من مشكلات .

وجعلتها في رسالتين : الأولى تنتقد دراستنا للتاريخ العربي من حيث مادته وطريقة بحثه في بعض النواحي التي رأيتها مهمة تستوجب النظر . وهي اشتات من الآراء ألّفت بينها الضرورة .

والثانية ، تحلل تاريخ صدر الاسلام من مختلف نواحيه بنظرة شاملة هدفها التوصل الى الاتجاهات الرئيسية التي كونت أحداثه وأكسبته صفاته الأساسية ، مع مراعاة أثر الشخصيات الهامة . فهي محاولة لوضع هيكل واضح يسهل بموجبه وضع التفاصيل في محلها المناسب واعطائها قيمتها الحقة .

ومع أن الكاتب ، أيا كان ، رهين بظروف نشأته وبيئته وثقافته ونضجه الفكري وزمانه ومكانه ، يتأثر بها شاعراً بذلك أو غير شاعر ، إلا أن البحث التاريخي العلمي يوجب التجرد المطلق ، وهذا ما حاولته في هذه الصفحات .

ولقد فكرت في إهداء هذه الصفحات المتواضعة ، فلم أجد أحق بها من طالباتي وطلابي ، ولاسيما أولئك الذين كانوا يكثرون من الأسئلة ويطيلون النقاش ، يبتغون بذلك أن يكوّنوا لهم شخصية علمية وتفكيراً مستقلاً . فاليهم أهدي هذا الكتاب .

بغداد ٣١ تموز ١٩٤٩ — عبد العزيز الدوري

خطة البحث

الرسالة الاولى - مع المؤرخين :

(١) تقسيم التاريخ إلى ثقافي واقتصادي وسياسي واجتماعي وضعف ذلك . مثل من تاريخ صدر الاسلام لتوضيح ضرر التقسيم ، ولبيان أهمية دراسة مختلف نواحي التاريخ في آن واحد .

(٢) خطر الهوى على التاريخ العربي : أثر الحزبية ، خطر الشعوبية ، وأمثلة لتوضيح ذلك من تاريخ العرب حتى العصر العباسي الأول .

(٣) اغفال المؤرخين (العرب) للعامل الزمني وللتطور الطبيعي في الحركات والتبدلات ، ونسبة ذلك إلى أشخاص . أمثلة موضحة من النظام المالي ، والحركة القرمطية ، والدعوة العباسية .

(٤) أخطاء النساخين وأثرها في التشويه .

(٥) تدوين تاريخ العرب على أساس العوائل الحاكمة يؤثر على التسلسل ويورث بعض الغموض مثل من صلة العصر العباسي بالعصر الأموي .

(٦) ضعف البحث التاريخي في فهم المصادر ونوعيتها .

(٧) أهمية نقد المصادر واتباع النظرة الشاملة في البحث .

(٨) الروايات الموضوعة وقيمتها للمؤرخ .

ختام .

الرسالة الثانية - نظرة شاملة الى صدر الاسلام

جغرافية بلاد العرب وأثرها في تاريخهم . التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية الممهدة لظهور الاسلام . أهمية المجتمع المكي . ظهور الاسلام

وبعض مميزاته . الصراع بين القديم (المبادئ القبلية) والجديد (الدعوة الاسلامية) وأهميته الكبرى في صدر الاسلام . الصراع في دور الرسالة وتدابير الرسول (ص). الصراع في الردة ، وانتصار التيار الاسلامي . تقدم التيار الاسلامي في الفتوحات ، مع تحليل المؤثرات الاقتصادية . العوامل القبلية والاسلامية في نشوء نظام الخلافة وتطوره : انتخاب أبي بكر ، مجيء عمر ، الشورى . الفتنة الأولى نتيجة للصراع العنيف بين التيار الاسلامي والتيار القبلي ، يضاف اليها العامل الاقتصادي ، استعلاء التيار القبلي ومجيء الأمويين . نقاط الضعف في الدولة الأموية عند تأسيسها . أثر التيار القبلي في العصر الأموي . توسع نفوذ التيار الاسلامي وأثره - خطر الموالي ، النظام المالي وأثره . الاتجاه الاسلامي ، والبرنامج الاجتماعي الاقتصادي في الدعوة العباسية . العباسيون بين الوعود والتطبيق ، مشاكلهم ، وفشلهم في تحقيق التعاون بين العرب وغيرهم على أسس اسلامية . ختام .

- ٦ -

مع المؤرخين

التأريخ موضوع حي يقوم بدور بليغ في الثقافة ، وفي التكوين الاجتماعي والخلقي . وهو موضوع ميسور بعض اليسر لمن أراد الكتابة فيه . لهذا كان مسرحا لكثير من الهوى وقليل من البحث الدقيق .

(١) وحقل التأريخ واسع ، يحتاج إلى نظر بعيد وإلى صبر وأناة . ولقد قسم - لتسهيل بحثه - إلى تأريخ سياسي ، وتأريخ ثقافي ، وتأريخ اجتماعي ، وتأريخ ديني ، وتأريخ اقتصادي . وأحيط ببحوث أخرى كالجغرافية التأريخية وكتأريخ الهجرات البشرية .

وتقسيم كهذا لا يستند إلى أساس ، فضلاً عما يحفه من مخاطر . فالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية مشتبكة تؤثر بعضها في بعض ويتأثر بعضها ببعض . والجغرافية التأريخية لها أثرها القوي ، وللهجرات البشرية دور حيوي . ولا يمكن بحال فهم التطور في ناحية من النواحي ما لم يفهم في النواحي الأخرى . وهذا التقسيم يفصل نتائج البحوث بعضها عن بعض ، فيجعلها كلها مبتورة أو متناقضة . ولأذكر مثلاً يوضح هذه الناحية : إنك إن درست تأريخ صدر الاسلام ، وقابلت بين البحوث في النواحي المختلفة منه فهمت أن العرب حين خرجوا من الجزيرة اصطدموا بأمم متفسخة منهارة ، فاضمحلت أمامهم . وقيل لك ان العرب سكنوا في معسكرات منفصلة ليحافظوا على طابعهم العسكري ولتكون مهنتهم الحرب والجهاد ، وأنهم أخذتهم نشوة النصر ونشوة العصبية فاحتقروا من حولهم . وقيل لك انهم بدو أميون ، فاضطروا إلى الاعتماد على غيرهم في الادارة والكتابة ، وخصوصاً في النواحي المالية . وان درست تأريخ الحضارة قيل لك ان العرب سرعان ما خضعوا لحضارة الهلال الخصيب وانجرفوا

معها ، وأنهم اقتبسوا كل شيء من جيرانهم ، فصارت حضارتهم مرقعة متنافرة .

ولكنهم مع ذلك يشيدون بالشعر الرفيع ، والأدب الفياض في صدر الاسلام ، وتدهشك وفرة من اشتغل منهم بالحديث والتفسير والفقه . ثم تنظر في الناحية البشرية من التاريخ ، فيخبرونك أن الهجرة العربية التي لازمت الفتح دفعت بقبائل بدوية إلى أراض حضرية ، وانها سبقتها هجرة عربية وهجرات سامية ، وانه كان في الهلال الخصيب مجموعات من العرب عاشت طويلاً وتأثرت بالحضارات الأخرى ولاسيما السامية منها . وأدركت أن الموجّه إلى هذه الموجة كان قريشاً ، تلك القبيلة التي انجبت زمرة لامعة من العبقريات في السياسة والقيادة والدهاء والفقه والأدب . وهم مع ذلك يخبرونك أن قريشاً قبيلة بدوية .

وهكذا تتحير وسط هذه الأحكام المتنافرة . ثم ارجع وناقش كيف احتقر العرب من حولهم ، وانفصلوا عنهم ، ثم تأثروا بهم بهذه السرعة الغريبة ، وكيف اعتزوا بكيانهم ثم تخلوا عنه لهذه المرقعة . ثم كيف تصفهم بعد هذا كله بالأمية ، ويروى لك أن الشاميين وحدهم رفعوا في صفّين خمس مئة مصحف يطلبون التحكيم ؟ وليت شعري أين صارت محاولات الرسول والصحابة لنشر التعليم ، الذي بدأ في مسجد المدينة ، وبثه الخلفاء في كل جهة من الجزيرة ؟ ثم أنك حين تعود لبحث ثقافة العرب في صدر الاسلام تجدهم قد اتجهوا نحو العلوم الدينية من دراسة لحديث الرسول ، وحفظ للقرآن وتفسيره ، واهتمام بالتشريع للاوضاع الجديدة التي قابلوها في الهلال الخصيب والبلاد المفتوحة ، واهتمام بالشعر والعربية . وان لاحظت هذه الزمرة اللامعة وجدتها من الصحابة وأبنائهم ممن نشأ بالمدينة وتثقف على يدي الرسول الأعظم (ص) أو على تلاميذه ، وعامتهم من العرب ، بينهم العدد الضئيل من مواليهم الذين نشأوا بينهم وتثقفوا بثقافتهم . وتجد الاهتمام

بأوليات التأريخ المتصل بحياة الرسول وغزواته وبأيام العرب وملوكهم وسيرهم خاصة . وأين هذا من ثقافة الأمم المغلوبة ؟

وان رجعت إلى الادارة ، وجدت أن الرسول (ص) يضع التشريع الكافي للزكاة والغنيمة ، وأنه يضع أسس الجزية في الجزيرة . ويأتي الخليفة عمر بن الخطاب (ر) فينظم الادارة مستفيداً من التراث الموجود في الهلال الخصيب ومصر، وهو تراث تمتد جذوره ولا شك إلى أقدم فترات تأريخ هذه البلاد . فتظهر تدابيره مختلفة في كل بلد . ولكننا نلاحظ في هذا الاختلاف اتجاهاً نحو التوحيد ، ومحاولة لخلق كيان موحد . فهو لا يستحسن انصراف العرب الى الزراعة ويشعرهم بأنهم للجهاد ويخاطبهم قائلا : « فانتم مستخلفون في الأرض قاهرون لأهلها ... فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أمتان ، أمة مستعبدة للاسلام يجزون لكم (أي يعطون الجزية) يستصفون معائشهم وكدائحهم ورشح جباههم ، عليهم المؤنة ولكم المنفعة ... وأمة قد ملأ الله قلوبهم رعباً » [١] .

واعتبر عمر الجزية والخراج رمزاً لخضوع من يؤديها ، وبدأ أول خطوة نحو التعريب بانشاء دواوين الجند بالعربية ، وبنقش عبارات عربية على النقود الفارسية والبيزنطية القديمة . وبعين القضاة من المدينة ممن يثق بكفاياتهم ، فيربط القضاء به رأساً ويحله المنزلة العالية ، فلا تؤثر فيه الادارة المحلية .

ونلاحظ ان العرب استعانوا بالأعاجم في الادارة المحلية لمعرفتهم بشؤونها ، ولم يكن ذلك لأميتهم ، وإن خير توضيح لذلك إنما هو في قول عبيدالله بن زياد : « كنت إذا استعملت العربي يكسر الخراج ، فاذا أغرمت عشيرته أو طالبته أوغرت صدورهم ، وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه . فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأوهن بالمطالبة منكم ، مع اني جعلتكم

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٧

أمناء عليهم لئلا يظلموا أحداً »[1] . فاستخدام الأعاجم إذن يتصل بمشكلة اجتماعية مهمة .

ومن ناحية الحضارة نجد القبائل العراقية التي سكنت في مدن منفصلة في الكوفة والبصرة تحافظ على تقاليدها القبلية لفترة طويلة ، أما تقاليدها الحضرية الاجتماعية فقد تكونت تدريجياً ولكنها تقوم بدور مهم في الفقه وعلوم العربية ، وتصبح البصرة والكوفة من أنشط مراكز الحياة العقلية . وهذا ينسجم مع ما لاحظناه من اتجاه الثقافة العربية الاسلامية . وفي الشام حيث اختلط العرب بغيرهم اكثر مما في العراق ، وحيث بلاط الدولة ، نسمع بموجة الترف في العاصمة ، ولكن الروح العربية والتقاليد العربية كانت لاتزال أصيلة قوية . ومع ذلك لم تظهر فيها مراكز عقلية تقابل بالكوفة والبصرة . ولكننا نسمع فيها بمناقشات دينية بين المسلمين والمسيحيين نتيجة لاتصال الآراء ، وبذلك تسربت الآراء والمعارف اليونانية والمسيحية الى المسلمين بصورة أولية في العصر الأموي . أما أكثر الجهات تأنقاً وايغالاً في الترف فهي المدينة ، مع ان المدينة كانت مركز التقاليد العربية الاسلامية ، واكبر مدرسة للحديث والعلوم الدينية ، حتى أنها فاقت في ذلك البصرة والكوفة . وهذا طبيعي لأن المدينة كانت مركز الارستقراطية العربية (من قريش والأنصار) التي ألفت حياة الترف قبل الاسلام والتي تفننت الآن . وهي مركز تعاليم الرسول ، وفيها تكونت أثقف زمرة من العرب . والمدينة نفسها شاهد على الاتجاه الثقافي المستقل للعرب ، وعلى نفي نظرية الترقيع الثقافي .

وفي المدينة ازدهر شعر جديد ، غزلي عفيف ، أو غنائي رقيق ، يستقي مصادره من هذه البيئة المترفة ، وينسجم مع رقة المدنيين وعذوبتهم . أما الشام

---

(١) ابن الأثير

والعراق فقد ازدهر فيهما الشعر السياسي وشعر المهاجاة حسب مقتضى الصراع بين الأحزاب السياسية ، وحسب حاجة العصبية القبلية .

ومن الناحية البشرية ، نرجع لنرى ان عامة الغزاة كانوا من الأعراب ، ولكنهم لم يكونوا مجردين من كل ثقافة ، فقد كانت لديهم ثقافتهم ومعارفهم التي هذبتها مبادئ الاسلام ، وعلينا أن نتذكر وجود قبائل في الهلال الخصيب استقرت من قبل وتحضرت متأثرة بالثقافة السامية السائدة . كما أن مكة التي وجهت العربَ كانت بلدة تجارة متحضرة ، وكانت موطناً لنضج اجتماعي وملتقى للتيارات الثقافية في الجزيرة قبل الاسلام . ويكفي أن الاسلام ظهر فيها ، وانها انجبت تلك العبقريات اللامعة في الاسلام ، وفي ذلك دليل على مستوى اجتماعي وثقافي عال كان فيها وعلى استعداد لها لذلك الانتاج السامي . وعلينا ان نتذكر ان ثقافة الهلال الخصيب إن هي إلا ثقافة سامية ، وان الفرس أنفسهم خضعوا لتلك الثقافة وانهم ابدعوا في ناحية واحدة هي الناحية الدينية ، وهذه الناحية لم تثبت أمام قوة الدين الاسلامي . أما الثقافة اليونانية فكانت طارئة ولم يكن لها تأثير مباشر ، بل كان التأثير للثقافة الهلنية التي هي مزيج من الفلسفة اليونانية والدين الشرقي . ومع ذلك لم تستقر إلا في بعض المدن ، ولما زالت سلطتها السياسية قل تأثيرها ، واقتصرت على تخللها بين الناس بصورة شفهية في العصر الأموي عن طريق المناقشات الدينية ، ولم يظهر تأثيرها المباشر في الفلسفة والطب والعلوم إلا في العصر العباسي وكان ذلك نتيجة حاجات عملية . فالعرب إذن أقدموا على ثقافة هي ثقافتهم .

ومن هذا نرى ان الاتجاهات الادارية والثقافية والمالية والتمازج البشري كانت تسير متضامنة في طريق ممتدة ، وتعتمد على الدين الاسلامي والكيان العربي والاتجاهات الثقافية العربية ، وان الشعوب الأخرى لم تبدأ بالمساهمة

إلا بعد أن دخلت في مجرى هذه الثقافة ، وأن تأثيرات الثقافات الأخرى لم تحصل إلا لحاجة العرب اليها بعد ذلك . وبهذا يزول التناقض الملحوظ من تجزئة نواحي التاريخ المختلفة .

(٢) ثم إن مادة التاريخ - عادة - مرتبكة ، وربما كانت أقرب إلى الأدب منها إلى العلم . فهي مجموعة سجلات وآثار وانطباعات وأخبار شفوية ومكتوبة ، وهي نتاج الفكر والعاطفة والخيال ، وهي رهينة بالظروف التي حصلت فيها أو التي كتبت بها ولذلك لا تخضع لقوانين معينة لاختلاف الأفراد في مؤهلاتهم ، ولاختلاف الظروف في الزمان والمكان .

إن تاريخ العرب وإن يكن ما دون منه فيه كثير من التحري والتدقيق ومحاولة الضبط ، بشكل قد يفوق فيه ما دوّن عند الأمم الأخرى ، إلا إنه يشكو من أدواء خطيرة بعضها قديم وبعضها يتصل بطريقة كتابته الآن . فقد عبثت برواياته الاتجاهات الحزبية والدينية ، وربما ورث هذا من نشأته لأن تلك وثيقة الصلة بعلم الحديث وبالسياسة . وأحسب أن القارئ يعلم كثرة ماوضعته الاحزاب والفرق من أحاديث لتثبيت كيانها ومهاجمة خصومها . ومع ان المحدثين حاولوا تمييز الموضوع منها من الصحيح وصنفوا الأحاديث الى صحيح وحسن ومقبول وضعيف وموضوع ، وصنفوها الى درجات من حيث سلاسل الرواية ، لاهميتها في التشريع ، مع ذلك لم يحصل في التاريخ شيء من هذا . ومع ذلك اعتقد انه ليس من العسير ملاحظة أثر الاحزاب والفرق في التاريخ . وربما تركزت بالدرجة الاولى حول تصوير بداوة الجاهلية بصورة الفوضى والانحطاط الخلقي والاجتماعي لاظهار عظمة الاسلام وخدمته ، ثم حول مهاجمة الامويين الذين قاومهم الاحزاب كافة عدا المرجئة . أما في الحالات الفردية المتصلة بالخلفاء فيسهل التمييز علينا اذا ما أدركنا ميول المؤرخين ، ونزعاتهم ، ومتى مادققنا في

الروايات الكثيرة المتعارضة ولاحظنا الظروف المحيطة بها . ومما يسهل النقد علينا ان كثيراً مما كتب للدعاية وضع باشكال اسطورية لا يقف أمام النقد . ولكن عقدة واحدة تقف أمامنا هنا ، وهي اشتباك الدين بالسياسة ، وادخال امور لها أهميتها في فهم التاريخ في مجال العقيدة ، وهذا مما يجعل المؤرخ حذراً في معالجتها لئلا يصطدم بسلك كهربائي لا يدري ماذا سيثير .

ولكن أخطر داء أفسد التاريخ الاسلامي هو داء الشعوبية الذي عصف بالحيـاة الفكرية في عصر التدوين . فان الشعوبية وجهوا جهودهم الى تشويه آثار العرب وتاريخهم حتى دينهم ، ونسبوا إلى دول الفرس القديمة خاصة ما لا يقره التاريخ من مدنية وآثار . ولم يقتصروا على التاريخ بل تناولوا الأدب ، وقد سلكوا أحياناً طريقاً بين الأدب والتاريخ . ولقد كنا نظن أن الشعوبية قصروا الهجوم على العصر الجاهلي مستغلين الناحية الدينية - ليظهروا عرب الجاهلية بمظهر البداوة الساذجة ، وانهم تركوا ما بعد ذلك حرمة الاسلام ، ولكن ظهر لنا انهم لم يحفلوا بما للاسلام من حرمة ، ولم تسلم منهم فترة ولم ينج أحد . وإنا مع خطورة هذه الناحية لم نجد من تعرض لها حتى الآن .

وسنحاول في السطور التالية اعطاء الصورة التي نحصل عليها اذا قبلنا ما يذكر على علاته ، ولن يخفى على القارىء معرفة أثر الاتجاهين المذكورين خاصة عند الشعوبية . وقبل ان أفعل ذلك ، ينبغي أن أبين ان المؤرخين العرب يروون رواياتهم عادة على علاتها ، إلا في القليل حين ينقدون . وقد ينفر القارىء مما سيقرأ ولكن هذا ما يقرؤه عادة ولعله لم يفكر فيه هذا التفكير من قبل .

نبدأ بدور الرسالة ، فنجد قصة الغرانيق ، تنسب الى الرسول تمجيد اللات والعزى ومناة ليجلب ود قريش كما يزعم ، وهي بذلك تريد بيان نكوص الرسول عن مبادئه ، ولو بعض يوم ، ولكنها نسجت بشكل سرعان مايتهافت

أمام النقد . وروايتها تدل على وضعها في وقت متأخر . أما راويها الأول ابن اسحق ، فهو بين التجريح والتعديل عند المحدثين .

وتظهر شخصية أبي بكر (ر) في الروايات مجردة من كل قوة ، فهي عندهم شخصية هادئة مقلدة أو تابعة لآراء من حولها . ولكن أين هذا من موقفه القوي وثباته عند وفاة الرسول (ص) مع دهشة المسلمين ؟! ثم موقفه الحازم في السقيفة وسيطرته على وضع خطير ينذر بأسوأ العواقب . ثم موقفه القوي في الردة حين خاف غيره حتى أصر على محاربة المسلمين الذين رفضوا دفع الزكاة لأنهـا من حقوق الاسلام ؟ ألم يثبت بذلك وحدة الدولة العربية ؟ هذا فضلاً عن سعة افقه في الفتوحات وقوة آرائه التي خالف بها عمر بن الخطاب كما في مسألة العطاء .

وجاءت الروايات تتهم عمر بن الخطاب في تنحية خالد بن الوليد وتتهم خالداً نفسه ، مع أن ذلك كان نتيجة لاتجاه عمر نحو سيطرة المركز على الاطراف وعدم ارتياحه لاستبداد خالد برأيه ، وخوفه من طموح البارزين على الوحدة الاسلامية حتى انه أبقى عامتهم في المدينة معه . واتهمته الروايات بأمر الشورى مع ان ظروفها كما سنرى هي التي فرضتها عليه ، ورمته بحرق مكتبة الاسكندرية وقد تحقق خرابها قبله بدهر طويل .

وصبت الروايات حممها على عثمان ، متهمة اياه بمخالفته سنة الخليفتين من قبله، على حين انه لم ينحرف في أسس سياسته عن السير على تدابيرهما في نظامه المالي وفي اتجاهه المركزي ، واتهمته بالاثراء وهو الذي أنفق جل أمواله في سبيل الاسلام . ووصمته بالضعف والتخاذل وحملته جريرة التطور الاجتماعي والتحول الخلقي . وانتقدته بشدة على جمع القرآن وإحراق المصاحف ، وهي تغمض بصيرتها عن ان الجمع واحراق بعض المصاحف (لأنها لم تحرق كلها) كان حدثاً

فاصلا في تأريخ الاسلام الثقافي والسياسي لأنه حفظ الوحدة الدينية والسياسية للاسلام بصون كيانه ودستوره الأعلى . وراحت تلومه على ترف الناس وثروتهم متجاهلة ما فاض في الفتوحات من أموال وما كان من أثر لاطلاع العرب على ما وجدوه في البلاد المفتوحة من أطايب المعيشة .

وجاءت الى الامام علي(ر) فصورته ضعيفاً في السياسة بعيداً عن الدهاء قليل التأثير فيمن حوله ، واتخذت عزله للولاة عند توليته الخلافة أول دليل على ذلك ، لأنه كان عليه أن ينتظر حتى تؤخذ له البيعة . وهذا حديث خرافة ، لأن القول في البيعة يعود للمدينة وحدها ، ولأن الثورة كانت على الولاة بالدرجة الأولى ، ولأن علياً ان أراد اتباع سياسة خاصة فعليه أن ينحي ولاة الفترة السابقة . وبعد فهو الخليفة . ولكن الروايات تتجاهل كل هذا . وتتجاهل ما هو أهم وهو أن مثله العليا الاسلامية كانت بعيدة عن فهم قبائل العراق وعرب الامصار ، فكان اتجاهه يناقض ميولها . وحمّلته سبب خيبته في حين ان اصول الثورة التي طوحت بعثمان ، وهي ثورة الروح القبلية الاقليمية والحسد لقريش هي سبب تلك الخيبة .

وجاءت الروايات الى بني أمية . فوجدت في الخصومة بينهم وبين آل البيت من أمويين وعباسيين موضعاً تشن منه الحملات العنيفة . ولقد ظن الكثيرون ان سبب طمس تأريخ بني أمية وتشويه الكثير من آثارهم يعود الى الحزبية . فما قولك «بانساب الاشراف» الذي يعد من أدق ماعندنا عن بني أمية ، مع أن مؤلفه البلاذري عاش في فترة قوة العباسيين وبقرب خليفة متعصب هو المتوكل ؟ ثم الا ينتظر ان يتوجه الهجوم الحزبي الى معاوية الذي أخذ الخلافة ، وهشام الذي قتل في زمنه زيد بن علي ؟ إلا أننا لا نلمس ذلك في الروايات ، بل نلاحظ شيئاً من الثناء على كفايتهما في السياسة والادارة . نعم لا ينكر أثر العباسيين ولكن هؤلاء لم يقيدوا الكتابة أو يوجهوها كما يظن ، بدليل انهم انفسهم

رسمت لهم صورة لا تقل عبوساً في كثير من نواحيها عن صورة الامويين .

لقد صوروا العرب في العصر الأموي أعراباً ، في حين ان أسس الحضارة والثقافة العربية والفقه الاسلامي انشئت في تلك الفترة . وجعلت الروايات النظام الأموي المالي سلسلة تدابير ظالمة ترهق الموالي وأهل الذمة ، في حين انهم ساروا على الاسس التي عرفت في عصر الراشدين مع تعديلات اقتضاها العرف المحلي والتطور ، وهي بمجموعها أصلح وأعدل من نظم البلاد قبل مجيء الاسلام . هذا بالاضافة إلى أنها هي النظم التي سار عليها العباسيون نفسها ، بل وزادوا عليها حين تطورت ظروفهم . وحاولوا التقليل من شأن فتوحاتهم في الشرق ، واظهارها بمظهر غزوات للحصول على الغنيمة فحسب ، مع أنها تمثل الموجة الثانية الكبرى والأخيرة للتوسع العربي .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لقد حاولت الروايات أن تؤكد اهمية الموالي في الحركة الثقافية في العصر الاموي ، على انهم مثقفون وان العرب بدو محاربون . فمتى تعلم الموالي اللغة والشريعة حتى نبغوا ؟ وممن تعلموها ان كان العرب بدوا ؟ ان الموالي لم يدخلوا الميدان إلا بعد أن استعربوا . والتعريب الشامل لم يبدأ إلا على أثر خلافة عبدالملك ومن الثابت لدينا الآن أن جلّ حملة العلم في العصر الأموي كانوا من العرب .

وكما لاحظ الشعوبية عملاً رائعاً حاولوا تقليل شأنه بنسبته الى امور تافهة . فحركة التعريب الكبرى في زمن عبد الملك والوليد وهشام ، تلك الحركة التي شملت الدواوين والنقد والطرز كانت مرحلة حاسمة في التطور الثقافي وفي الاستقرار السياسي والاقتصادي . وربما كان التعريب هذا أعظم حدث ثقافي سياسي بعد جمع القرآن ، نظم وفق خطة شاملة . ولكن الروايات تظهره مرتجلا ، وتنسبه الى أسباب تافهة كغضب الخليفة على دلال كاتب ، أو غضب وال من

تباطؤ مولى . (ونجمل ذلك هو الدافع لتعريب الدواوين) ، أو بسبب تهديد البيزنطيين بان يشتموا الرسول على النقود ، كأن النقود صحف للدعاية وكأن الناس يقرءون الحروف اليونانية ، وكأن البيزنطيين كانوا يسكون النقود للعرب . ولن أتطرق الى تشويههم لآثار الخلفاء الامويين وللعرب عامة في العصر الاموي ، بل أذكر مثلاً يبين ان الروايات دست حتى في الحالات التي تتظاهر بالثناء . فعمر بن عبد العزيز ، كان سياسياً عبقرياً وضع خططاً مالية وسياسية عملية هدفت الى انقاذ الدولة من محنتها المالية وحفظ كيانها من التصدع للصراع بين العرب والموالي . ولكن الروايات جعلته رجل آراء خيالية ومثل خاوية ومبادىء نظرية وأساءوا تفسير تدابيره ، ووضعوه على رف الحالمين الحائرين .

ثم تمجد الروايات دور الموالي في الدعوة العباسية وترفع أبا مسلم الخراساني ورهطه إلى الذروة ، وتسدل الستار على بني أمية ، غير مأسوف عليهم .

فهل رحب الشعوبية بالعباسيين ؟ لقد استقبل الموالي حكم بني العباس بالثورات المتوالية ، سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية ، تظهر بقوة في خلافة المنصور وتستمر في عصر المهدي والرشيد والمأمون والمعتصم . حتى انشاء الامارات الفارسية المستقلة . ولو تصفحت تأريخ العباسيين بدقة لرأيته سلسلة صفحات مملة قاتمة .

فأبو العباس متهم عندهم بسفك الدماء وهو بعيد عنه ، يستغلون بذلك تسميته لنفسه بالسفاح ، وقصده الكريم ، فيفسرونه بالسفاك ، مع انه كان سياسياً مرناً يكره سفك الدماء ويفضل التفاهم واللين على الشدة .

وتنتقل الروايات إلى المنصور مثبت كيان العباسيين وواضع أسس سياستهم ، فتهمل روائع أعماله وتكرر اتهامه بالغدر والخداع ورغبته في اراقة الدماء . وحين تمر ببنائه بغداد تنسب ذلك إلى رغبته في الاستبداد والأبهة بالدرجة

الأولى . أما الغرض السياسي والعسكري فتظهره ضئيلاً مطموساً . وهي تأبى أن تعترف بقابليته الفذة على اختيار الموقع، بل تنسب ذلك إلى المصادفة التي جمعته براهب روى له اسطورة ، وإلى حماره الذكي الذي أعجبه المكان . وتنسب سياسته في البدء بحركة الترجمة المنتظمة إلى دافع شخصي ، إذ انه عندها مصاب بمرض في المعدة وكفى . أما انقاذ الدولة من طغيان أبي مسلم وتمرده ومن دعايته الخطرة التي بعثت آمال الفرس في السيادة ، وأما قمعه للثورات الفارسية فتلك فظائع بنظر الروايات لا تنسى . ×

وإذا ما تحدثت عن المهدي ، صاحب السياسة المسالمة التي أراحت الرعية — ولكن ايران ساخطة ثائرة مع المقنع — صورته لنا مترفا باذخا شغله انصرافه إلى الترف عن العناية بشؤون الرعية تاركا دولته لوزرائه ، يتهم خصومه كبشار ابن برد (الذي تحاول أن تظهره بمظهر البريء من الزندقة ، ليتخلص منهم .

أما الرشيد فتمده تلك الروايات خليفة لامعاً حين أيدته البرامكة . فالبرامكة - في زعمها - سر مجده وروح العصر الذهبي وهم مثل الكرم والسياسة . فكفر الرشيد بنعمة الله عليه حين نكبهم ، وهل يجود الدهر بمثلهم ؟ كلا ! وعادت الروايات إلى الرشيد فصورته مصاباً بالنقص ، وجعلته مجمع الشذوذ الجنسي ، يحب جعفراً حباً مريباً ويحب اخته حباً جماً فيجمع بين نقائض الشذوذ ، ويخلقون من التناقض اسطورة يلطخون بها جبين الأسرة العباسية وجبين العرب بشكل قبيح منقطع النظير . ثم لا يلتفت المؤرخون للتناقض . فالرشيد لم يكن عندهم إلا شبحاً يحكم باسمه البرامكة دون رقيب ولكن الشبح هو الذي بطش بالبرامكة ، وهو الذي بطش بالروم بعد نكبة البرامكة ، بل ينشط الشبح حتى يذهب إلى أقصى الشرق ليقمع ثورة خراسان التي قادها رافع بن الليث ، فيلقى أجله .

وتتغافل الروايات من وجود كتلتين في البلاط العباسي كتلة عربية وأخرى فارسية يمثلان التنافس على السلطان بين العرب والفرس ، وتنسى الروايات محاولة الرشيد أن يستغل ذلك ليسطر على الحالة ويحدث التوازن ، فلما كاد يختل بطش بالكتلة الفارسية بمعاونة الكتلة العربية . وهي بعد ذلك تتخبط في عرض صفات الرشيد بين الرضا عن القسم الأول من الحكم والسخط على القسم الآخر منه . فهو تقي ورع ، وهو مدمن متحلل ، وهو جندي مجاهد ، وحاج يسير على الأقدام ، وهو مترف يقضي وقته بين الجواري والقيان ، وهو ساهر على مصالح رعيته ، يدور متنكراً في الليل ليفهم الأحوال ، وهو مهمل متراخ — كل ذلك يجمعونه في شخص واحد .

ثم ترجع روايات الشعوبية للأمين وتطلق لنفسها العنان ، انه الخليفة الثاني (بعد أبي العباس) من أبوين عربيين ، وأولهما من أبوين هاشميين ، والأمين جملته الظروف ، وصار بعد ذلك ، أمل الكتلة العربية في البلاط ورمز آمالها وكفى بذلك سبة . ونكبة الأمين فتحت لهم الباب . لقد صورته الروايات خليفة متفسخاً لايفهم إلا الأنس والطرب ، ولا يقدر مسؤولية، ولا يعرف غير الجواري وشرب الخمر مع كثير من الشذوذ الجنسي وغيره . يهزم جيشه فلا يعبأ ، ويأسف لأن غلامه كوثراً صاد سمكة في البركة وهو لم يصد . ويعمل الحراقات على أشكال الحيوانات ليتنزه في دجلة ارضاء لنزواته . ويتخبط في سلسلة أخطاء ، بل هو بذاته مجموعة أخطاء ونقائص قل أن يتهكم الزمن لدرجة أن يجود بأهزل منها . ألم تجتمع نسوة من عالم الغيب حول أمه عند ولادته فتتنبأ له بالغدر وقصر العمر والتقصير والتخليط ؟ ألم يندم الخليفة على جعله ولياً لعهده لأنه ينغمس في الملاذ والشهوات ، ويستمع إلى رأي النساء ، إضافة إلى ضيق صدره وسوء تدبيره ؟ نعم جمع كل ذلك حين كان عمره بين خمس سنوات وست حين عهد له !

ألم ينشأ دون ثقافة ؟ هذا ما تحاول الروايات تقديمه بحروف بارزة حتى ليقول ابن الاثير بأنه لم يجد للامين شيئاً يستحسنه فيذكره . هل ينسجم ما ذكرته الروايات ، مع ما نراه في روايات عابرة من أن الامين كان ينظم جيوشه بنفسه ، وانه كان أحياناً يسهر الليالي في أمور الدولة ، وانه لم يبدأ الحرب مع أخيه إلا بعد مراسلات دبلوماسية طويلة ؟ وهل يوصف بقلة الثقافة من يهذبه أمثال الكسائي والاصمعي ويثني الاصمعي على ذكائه وتهذيبه ؟ وهل يوصف بالغدر من يرفض تهديد أخيه بولديه الموجودين في بغداد مع أنهما يصلحان لأن يكونا خير رهينة ؟ لقد أطلنا لنرى إلى أي درجة من التشويه وصلت روايات الشعوبية بتأريخ العرب .

وجاء المأمون ابن اخت الفرس ، ففرحوا به وابقوه في مرو ، وعادت آمالهم جياشة ، فرفعوا ذكره حتى صار مثل العلم والحلم والعقل والثقافة والتدبير . فلما انقلب على مرو وعلى بني سهل وعاد إلى بغداد ، عادوا يهدّون ما بنوا ، فتكونت لنا صورة غريبة عنه هي كالبرج الشامخ وليس في داخله إلا رماد .

أما الحركة العلمية الرائعة في العصر العباسي ، ولا سيما حركة الترجمة فلم تكن حسب تلك الروايات إلا بسبب معدة المنصور واعتقاد المأمون بالرؤيا . هكذا تريد الروايات ! لننس التطور الحضاري والمناقشات الدينية بين المسلمين وغيرهم ، وحاجة العرب الى العلوم العملية والعلوم الفلسفية ، وحاجتهم الى الفلك لصلته ببعض الأمور الدينية ، وظهور حركة التدوين وانشاء بيت الحكمة . نعم لننس هذا ولنقتصر ، بمشيئة الروايات ، على معدة المنصور ورؤيا المأمون .

لقد سقت هذه الامثلة لأشير إلى بعض آثار التشويه . ولن ألوم المحدثين إلا على ما يظهر في بحوثهم من حسن نية في غير محلها ، وقبول ما يقرؤون في الكتب دون تمحيص وبحث وبذلك نبتوا ارتباك الماضين ، وأظهروا التناقض

بمظهر الاكيد فزادوا الطين بلة . وإني أشير عابراً إلى أن أثر الشعوبية شمل الأدب وليس لدينا متسع يساعد على مناقشة هذا الأثر مناقشة كافية . ويكفي أن أذكر مثلاً للتهجم لا للتشويه ، في الأدب . كتب سهل بن هارون رسالة يمجد فيها البخل لأن العرب يحتقرونه ، ويتمجدون بالكرم ويعيبون على الاعاجم البخل . كتب سهل هذه الرسالة ليحط من الكرم وأصحابه وليظهره بأحط مظهر . فكتب الجاحظ كتابه اللاذع (البخلاء) باسلوب قصصي بارع النكتة شديد في التهكم . فرد سهام سهل إلى نحره بتهكم عنيف وسخرية بالغة ومرح مضحك . هل ينسى القارىء مثلاً ان الديكة في كل البلدان تقدم الحَبّ للدجاج أولاً ثم تلتقط ما تشاء منه بعدها ، إلا في مرو (قلب خراسان) حيث تلتقط الحب قبل الدجاج !

(٣) وهناك مشكلة أخرى وهي أن المؤرخين العرب يهملون أثر الزمن وما يصحبه من تطور ، وينسبون الكثير من التطورات التي احتاجت الى وقت طويل إلى أشخاص سابقين . ولدينا أمثلة كثيرة . فالنظام المالي ، لاسيما تنظيم الجزية والخراج ينسب كله الى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب . فيذكرون انه عد الجزية رمز الخضوع ، واعتبر الخراج ايجاراً للارض لا ضريبة ، ولذا يلزم دفعه على المسلم والذمي . ولكن البحث يدل بوضوح على أن هذا التمييز الأخير لم يحصل إلا في زمن عمر بن عبد العزيز في حين ان عمر بن الخطاب عد الاثنين رمز خضوع ، وأعفى من أسلم من كليهما . كما ان النظام المالي المنسوب الى عمر ابن الخطاب لم يكن نظامه وانما ظهر بعده تدريجياً خلال فترة تزيد على قرن .

ومن أمثلة ذلك نسبة الحركة الاسماعيلية والقرمطية إلى عبد الله بن ميمون القداح ، مع أن هذا جاء في الفترة الاولى ، وان الحركة استغرقت مدة طويلة

واشتغل فيها كثير من المنظمين والمفكرين حتى انتظمت واتسعت وقامت بدورها الخطير في التاريخ والفكر الاسلامي .

وهم ينسبون قيام الدولة العباسية إلى جهود أبي مسلم الخراساني والى عبقريته. في حين ان الدعوة العباسية كانت تبث منذ زمن يزيد على ربع قرن قبل مجيء أبي مسلم ، وقد وضعت أسسها وأساليبها ومبادئها قبله ، ولم يرسل ابو مسلم إلا بعد أن ثبتت وبلغت غاية خطورتها ، واصبحت الحاجة ظاهرة للخروج بالدعوة من الاسلوب السلمي السري الى الاسلوب العلني المسلح . فعهد إلى أبي مسلم تنظيمها في مرحلتها الأخيرة وقيادة قواتها . وان نحن دققنا أساليبه نجدها استمراراً لما حصل قبله ، لا جديد فيها ، حتى ان انضمام الدهاقين اليه لم يكن نتيجة كفايته الخاصة ، بل نتيجة التنظيم المالي الذي قام به نصر بن سيار في تلك الفترة إذ ادخل ضريبة على الأراضي في خراسان لأول مرة فأضر بالدهاقين مالياً وأفقدهم كيانهم الممتاز فلم يبق لهم مجال للتعاون مع الامويين فانضموا إلى الدعوة العباسية .

(٤) وتجابهنا تشويهات النساخين ، وتحريفاتهم مما قد يخلق مشكلات ليست باليسيرة . ويكفي ان اذكر هنا مثلين لذلك . جاء في طبعة المسعودي عن المنصور « انه أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرّفهم في مهماته وقدمهم على العرب . فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده - من ولده - سنّة ، فسقطت وبادت العرب ، وزال بأسها وذهبت مراتبها »[١] ، بينما يرد القسم الأخير من هذا النص في الطبعة الاوروبيـة « سقطت قيادات العرب ، وزالت رياستها وذهبت مراتبها »[٢] . فالنص الأول يبيد العرب ويذكر سقوطها وزوال بأسها ، في حين

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٤

(٢) ن . م . ج ٨ ص ٢٩٢

أن النص الثاني يشير الى ذهاب القيادة والرئاسة منها ، والفرق شاسع بين الاثنين .

وجاءنا في طبعة للمقريزي وصف طريقة الجباية في مصر في صدر الاسلام « كانت جبايتهم بالتعديل ، إذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وان قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرافوا كل قرية وأمراؤها ورؤساء أهلها فيتناظرون في العمارة والخراب ، حتى إذا أقروا في القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور »(١). فهو يجعل اللجنة المحلية مؤلفة من (عرافي القرية وامرائها ورؤساء أهلها) . ولو رجعنا الى الطبعة التي نشرها المجمع الفرنسي لمصر لوجدنا محل (عرافوا) كلمة (غُراقِسو) ومحل (امراؤها) كلمة (مازوتها)(٢) وهاتان الكلمتان تشيران الى الاسماء القبطية للرؤساء المحليين . والفرق كما ترى بعيد بين الاصطلاحين والتحريف . وبهذه الحالة يثبت الناشر بقلة علمه ما حرفه الناسخ بجهله .

(٥) وتجابهنا مشكلة أخرى لها صلة بهذه المشكلة ، وهي تدوين التأريخ على أساس الاسر الحاكمة . وهنا تعترضنا ناحيتان : الاولى ان تركيز الانتباه يكون على الاسرة نفسها ، ويندر أن يشار الى الامة أو إلى الشعوب المحكومة وبذلك يظهر التاريخ سلسلة فترات متقطعة لا ارتباط بينها . فالراشدون يمثلون التقوى والسير على الشريعة مثلاً ، والامويون اغتصبوا الخلافة وجعلوها ملكاً ، والعباسيون حملوا لواء الدعوة إلى الحكم الشرعي فساروا على أساس الدين والقوة واستأثروا بالحكم وجاءوا بدولة جديدة أو عصر جديد . وإذا ماذهبنا الى التفاصيل وجدنا لكل خليفة شخصيته وميوله واهواءه ، فهو يحكم بحسب اجتهاده أو آرائه . وبذلك لا تقتصر التجزئة على عصور الاسر ، بل تتعداها الى اجزاء

---

(١) الخطط ج ١ ص ١٢٣ مطبعة النيل سنة ١٣٢٤ هـ

(٢) المجلد الثالث ، القسم الأول ص ٣٢٣ ـ ٤

العصور أو الفترات التي يحكم فيها كل خليفة . والناحية الثانية تزيد الأمر تعقيداً، وهي نسبة ما حصل مؤخراً إلى الأولين فتصور ادارة العباسيين مثلاً مختلفة كل الاختلاف عن ادارة الأمويين وتصور التطورات التالية كأنها كانت موجودة من البدء وكذلك يؤكد الانطباع الذي يعطيه الخليفة في آخر سنيه ويسجل وكأنه وجد من بدء حكمه ، وكأن الخبرة والتجارب والظروف المحلية لا أثر لها وهكذا تؤكد الخطوط الفاصلة ، وتوسع ، فيظهر التاريخ ممزقاً مقطع الاوصال . فتخفى على الباحث ملاحظة العوامل المستمرة والتيارات الخفية التي تكمن وراء الحوادث ، في حين ان الحوادث هي نتائج لتلك العوامل والتيارات. ففي التاريخ من عوامل الاتصال والاستمرار ما يجعل التجزئة غير ممكنة ، وما يجعل كل فترة متممة لما قبلها ونتيجة طبيعية لظروفها . فالعوامل الجغرافية من موقع ومناخ وحاصلات وثروات طبيعيـة ، والعناصر البشرية للسكان ، والاتجاهات الثقافية والاساطير والتقاليد والعادات والروح العامة التي تكونت على مر الزمن ، كلها عوامل تضمن الاستمرار وتمنع الانقطاع بأية حال من الاحوال . أما التبدلات السياسية التي نعدها تبدلات مفاجئة فانها حين تفحص تظهر نتائج لتبدلات داخلية وتطورات هامة خفية .

ولنضرب مثلاً للتوضيح : إن الدولة العباسية هي استمرار لدولة الأمويين ونتيجة لها . اننا نميز العباسيين مثلاً بانهم قربوا الموالي واشركوهم في الحكم ، ولكن أهمية الموالي ظهرت قوية بتكاثر عددهم وبتركيز مبادىء الاسلام منذ العصر الأموي ، حتى لنجد بينهم القادة والفقهاء والكتاب ونجد منهم المقربين عند الخلفاء ، كما نرى من وضع سالم مولى هشام وعبد الحميد الكاتب مولى مروان . بل ونجد منهم الأئمة المرموقين كأبي حنيفة الذي كان نتيجة البيئة الاموية . ولما وصلت قوة الموالي لحد أن جعلتهم يقومون بعمل أساسي في قلب

الخلافة الاموية كان من الطبيعي أن تظهر هذه القوة في مجال السياسة العلني في العصر العباسي .

وتصور لنا الادارة العباسية كأنها ادارة مركزية جديدة في كل شيء ، على أساس ان العباسيين احدثوا نظام الوزارة وبدلوا طريقة الادارة من الشكل الاموي اللامركزي إلى شكل مركزي قوي . ولكننا حين نفحص الوضع نجد ان الوزراء العباسيين الاولين لا يختلفون في صلاحياتهم عن الكتاب الامويين المقربين كعبد الحميد الكاتب . ولو عدنا القهقرى إلى فترة أقدم من هذا لوجدنا لروح بن زنباع الجذامي من المنزلة عند عبدالملك ما أوهم بعض المؤرخين لجعله وزيراً له . ثم ان النظام الاداري الاموي كان يسير باطراد نحو المركزية ، وقد أخذ العباسيون النظام نفسه وزادوا المركزية بالتدريج أيضا . وكانت الدواوين العباسية الاولى هي الدواوين الاموية عينها ، ثم تطورت بالتدريج كما كان التطور يحصل في العصر الاموي . والخلاصة ان العباسيين ساروا على النظام الاداري الذي وضعه الامويون .

وحين ننظر إلى أساليب الجباية ونظام الضرائب ، نجد الوضع العباسي في بدئه هو الوضع الاموي عينه . فنظام عمر بن عبد العزيز المالي انتصر في العصر الاموي فترة - على العكس مما يقوله المؤرخون - وساد حتى تبدل نظام الضرائب في خراسان لينسجم مع نظام عمر بن عبد العزيز . ولما جاء العباسيون ساروا على هذا النظام نفسه . ومن جهة ثانية استمرت أساليب الجباية الاموية متبعة في العصر العباسي . وهذا ما جعل بعض الناس خاصة في ايران يشعرون بانه لم يحصل تبدل بمجيء الدولة الجديدة .

وينسب للعباسيين بدء الحركة العلمية الكبرى في الترجمة . وان نحن دققنا هذا الرأي اتضح لنا بعده عن الدقة . فالترجمة بدأت منذ العصر الاموي ، في

زمن خالد بن يزيد وكانت فردية ، وعندنا أخبار عن ترجمات في زمن عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك . اننا لا ننسى حركة الترجمة الكبرى في العصر الاموي تلك التي نسميها تعريب الدواوين الذي استغرق حوالي نصف قرن . وهذه الحركة كانت عاملاً أساسياً في تعريب الطبقة المثقفة من الاعاجم . وكانت ضرورة عملية لتطور الدولة في اتجاهها العربي . أما محاولات الترجمة في النواحي العلمية فلم تكن ضرورة عملية أساسية ولذا لم تثمر حتى ظهرت الحاجة اليها في العصر العباسي . ومن ناحية أخرى نجد الترجمات الادبية والفلسفية عن الفارسية تبدأ من أواخر العصر الاموي ، ويكفي أن نذكر اسم سالم مولى هشام وابن المقفع (الذي برع في العصر الاموي) وما قاما به من ترجمات في التأريخ الفارسي والأدب لنعرف أن الترجمة عن الفارسية في العصر العباسي هي استمرار نشيط لما قام به الأمويون . ولا ينبغي أن ننسى ان حركة الترجمة عن الفارسية في الأدب والدين قامت بدور مهم في الحركة العلمية العامة ، ولكنها لم تسجل بعناية لان موضوعاتها لا تنسجم والاتجاه العربي الاسلامي ولانها لم تكن باشراف الدولة .

والحركة الشعوبية التي تعد من أبرز مظاهر الحياة العامة في العصر العباسي بدأت من العصر الاموي ، وقامت بدور مهم . ولكنها كانت تتستر وراء المساواة الاسلامية ، فلما ازيح الستار باشراك الفرس في الحكم ظهرت بشكلها المفضوح المعادي لكل ما هو عربي اسلامي .

وحتى نظرية العباسيين في الحكم - وهي انهم عائلة مختارة من الله وان سلطتهم مستمدة من الله ، وان حكمهم خالد وان الارض لن تخلو من إمام عباسي أبد الدهر ، وانه لامعنى للرأي العام في الحكم - أقول حتى هذه النظرية نشأت

عندهم وعند العلويين في العصر الاموي نفسه . ولكنهم نادوا بها حين وصلوا إلى الحكم .

ومع ان الوزارة اسندت الى الفرس في العصر العباسي الأول فان ذلك لم يكن كما يفسر وهو نتيجة ضعف العرب الكتابي ومقدرة الفرس ، فالعرب العباسيون أوغلوا في الثقافة أكثر من الامويين ، ونحن نرى عرباً قاموا بالكتابة في العصر الاموي ، ونرى عرباً برعوا فيها في العصر العباسي . ويجب أن لا ننسى ان الكتابة كانت بالعربية . فلا يمكننا أن نقبل هذا السبب لاسناد الوزارة الى الفرس . ولكن السبب - كما يظهر لي - هو في رغبة العباسيين لتكوين التعاون بين العرب والفرس في الحياة العامة ، وتدعيمه لتثبت أسس دولتهم التي تريد اشراك الفرس ولا تريد اهمال العرب . والخليفة عربي فمن المنتظر أن يكون معاونه الاول فارسياً . وبذا كانت الوزارة عنوان هذا التعاون . ولعلنا نكون أدق إذا قلنا التعاون بين العرب والموالي لأن بعض الوزراء كما يظهر لم يكونوا فرساً بل موالي من غير الفرس . فأبو أيوب المورياني كان من الاهواز وقد شتمه المنصور قائلاً : « يا خوزي » ولم نعرف أن النسبة الفارسية كانت منقصة عند العباسيين ليشتم أبو أيوب لفارسيته . ولكن يتضح سبب نسبتهم جميعاً الى الفرس إذا تذكرنا ان الانباط كانوا يحبون الانتساب الى الفرس بعد مجيء العرب ، واسمع الشاعر يقول :

وأهل القرى كلهم يدّعون   بكسرى قباذ فأين النبط ؟

وهكذا نرى في العصر العباسي استمراراً للعصر الاموي وتتمة له . وان حصل تطور فذلك تدريجي وطبيعي ، ومن الخطأ أن نفترض ، كما تريد المصادر ، أن التطور حصل بطفرة واحدة ، عند مجيء العباسيين .

(٦) وثمة مشكلة أخرى تهم تبعتها علينا لا على مصادرنا ، وهي أننا لا نميز

نوعها أحياناً . ففي بحث النظم والضرائب والخلافة ننظر الى كتب الفقهاء ، وهي تصور لنا دساتير النظم المختلفة بشكل مثالي لا بحقيقتها العملية . وهي بشكلها الثابت المتبلور تعطي الانطباع بان النظم سارت وفق هذه الدساتير ، أو أن النظريات بدأت وفقها واستمرت كذلك .

ولكن التدقيق يدل على أن تلك الدساتير لم تكن موجودة عند بدء النظم ، وإنما كتبت متأخرة بعد خبرة طويلة مرت بها المؤسسات ، فوضعت لتمثل خلاصة الخبرة والتجارب مهذبة مرتبة ومرفوعة الى الصورة المثالية التي تعرفها كتب الفقه . فان أردنا معرفة النظم وجب علينا الرجوع الى كتب التأريخ وملاحظة النبتة من أولها ، ثم متابعة نموها وتطورها خلال الفترات المختلفة . وما الدساتير في كتب الفقه إلا ما يقابل « النظريات السياسية » في الوقت الحاضر . ولذا وجب علينا أن ندرس الناحية العملية لنفهم التطور ، ثم ندرس كتب الفقه لنرى التفكير السياسي أو المالي أو الاجتماعي المتعلق بتلك النظم .

وفي الحديث عن التأريخ الاقتصادي والاجتماعي نكيل اللوم على مصادرنا ونتهمها باغفال هذه النواحي ، وندعي أن مؤرخينا لضيق أفقهم أو لنوع ثقافتهم أهملوا الامة وتطورها ، وما ذلك إلا لجمودنا على كتب التأريخ المعهودة . ولكن النظرة الشاملة لتراثنا التأريخي تنقض هذا . فهناك طائفة من الكتب تعنى عناية خاصة بالموضوعات الاجتماعية والاقتصادية مثل كتب القصص التأريخي (كنشوار المحاضرة للتنوخي) وبعض كتب الادب (ككتب الجاحظ) ، وكتب السير والوفيات ، وكتب الجغرافية والرحلات . فهي كنز ثمين مليء بالمعلومات الطريفة لمن يريد الكشف عن التطورات الاجتماعية والاقتصادية . ولكننا نضع تبعة ضعفنا وقلة تدقيقنا على من سلف دون تدبّر .

(٧) يتضح من هذا كله أن الدراسة المنظمة لتأريخنا تتطلب نقد المصادر

لمعرفة أصولها وميول مؤلفيها وتستوجب اسناد كل ما تأخذ منها الى مصدره ليعرف القارىء قيمة معلوماتنا ودقة أصولنا . وتتطلب معالجة الفترات المختلفة معالجة متصلة دون تجزئة ، لتظهر نواحي الاستمرار والنمو ولتفهم الامة في تدرجها لا تأريخ الافراد والأسر ، وأن نحيط بها من نواحيها المختلفة التي تمثل الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية والدينية كافة ، لنقدم للقارىء فكرة شاملة . وليفهم الشخصية العامة للامة بأكمل صورة ، وبذلك تكون الصورة منسجمة لا مجموعة اشلاء مبعثرة . وان نستعين في بحوثنا بكتب التأريخ والادب والفقه والقصص والشعر ، وبالآثار الفنية والاساطير .

ومن الواضح أن القصص والاساطير الشعبية لها أهمية كبيرة في الكشف عن عقلية السواد الاعظم من الامة وبعد نظرهم الى الامور ونوع تفكيرهم . فتكرار الاشارة الى أهمية الاحلام والنبوءات في التأريخ تشير الى مجتمع يعتقد بهذه الامور ويرى لها أهمية عملية ، وتلك نتيجة لضآلة ثقافته وتفشي الامية فيه . كما أن بعض الخرافات لها أهمية في الكشف عن نواحي أخرى مهمة . فالاعتقاد بان من أكل سبع تمرات في الصباح لا يدخل الشيطان داره ذلك اليوم ، يشير الى انتاج واسع من التمر وإلى العناية بزرعه . والاعتقاد بأن القسطنطينية لا يفتحها إلا رجل اسمه اسم نبي تشير إلى عجز عن فتحها ويأس يرجيء ذلك إلى زمن مجهول . والخرافة التي تزعم بأن من فتح عينه ونظر الشمس دون أن تدمعا مباشرة فهو كافر تشير إلى عيون تتفشى فيها الامراض ويندر فيها من يستطيع فتح عينيه على قرص الشمس . والاسطورة التي ظهرت في العصر العثماني ، والتي مفادها ان بغداد حين خططها المنصور أحاطها بحبل علق عليه جرساً في جهة وأمر ألا يبدأ بناؤها إلا بعد دق الجرس . فمر حمار فدق الجرس وبدأ البناءون بالبناء ، فلما سمع المنصور بذلك تأوه طويلا وقال « بغداد نصيب الغريب » ! تلك الاسطورة

هل تكون مثلها إلا عند أمة ذات أربعة قرون ؟! وبهذه المناسبة ابين ان ألف ليلة وليلة كنز ثمين يكشف عن تطور العقلية الشعبية في البلاد الاسلامية في مختلف عصورها ، فهي تمثل هذه العقلية في خرافاتها وسذاجتها وصراحتها المكشوفة في الأمور العاطفية ، وشكها بالمرأة واحاطتها بالأسوار ، وحبها للمغامرات والغرائب ، ورأيها في الشعوب المجاورة ، ورأيها في الترف المتمثل في قصور الملوك ورفاهية التجار . كما أنها مزيج من الواقع والخيال في قصصها . ومما يؤسف له أن يهمل هذا الكنز التاريخي ولا يدرس كما ينبغي . واني أرى أن من درسوها اتجهوا اتجاهاً مغلوطاً . فهم حاولوا دراستها من بدئها متقدمين مع العصور ، فضاعوا وضمنا في المحاولة . واني لأراها كالبصلة تتألف من طبقات من الأوراق ، ولا يمكن فهمها بالنقب على الفسيلة الداخلية بمنتصف التأريخ ، بل أن نبدأ بالقشر الأخير ونرفع قشراً قشراً حتى ننفذ الى الداخل ، ويكون ذلك بمحاولة مقابلتها بكتب الأدب والقصص التي كتبت في مختلف العصور ، مبتدئين بالحديث راجعين تدريجياً إلى القديم وبذلك فقط نستطيع معرفة تطور الف ليلة وليلة وتطور العقلية الشعبية .

وعلينا ألا نتقيد - عند البحث - برأي أو نسلم باستنتاج إلا اذا استطعنا اختبار صحته من مصادرنا ، فالشك في كل رأي وفي كل خبر ضرورة للبدء الصحيح .

إن ميلنا الى قبول الروايات المتواترة في البحث ، أو تسليمنا بخبر ان تكرر وروده في عدة مصادر قد لا يفيد أحياناً ، لأن هذه المصادر المتعددة قد تكون مستقاة من مصدر واحد ، متى عرفنا صاحبه وجدناه مدلساً أو ضعيفاً . كما اننا قد نجد في الاجماع ما يبعث على الريبة أحياناً . فمثلاً تتواتر الروايات بأن الدعوة العباسية بدأت سنة ١٠٠ هـ ولكنها تخبرنا ان إمامة محمد بن علي العباسي ، المنظم

الأول لها بدأت سنة ٩٨ هـ على أثر وصية أبي هاشم زعيم فرقة الغلاة الهاشمية التي اعتمدت عليها الدعوة العباسية أول الأمر. فيخامرنا الشك - ماذا حصل في السنتين الواقعتين بين وفاة أبي هاشم وسنة ١٠٠ هـ؟ فيدفعنا الشك الى مناقشة تفاصيل الروايات حتى نتوصل الى رفض هذا التواتر بدلائل أخرى غير مباشرة أو غير ملحوظة لأول وهلة.

وقد يجد الباحث فائدة تأريخية مهمة في أخبار يعرف أنها مزيفة أو يتوصل الى زيفها نتيجة التدقيق. وللتدليل أذكر الوصية المشهورة التي قيل إن ابن ابراهيم الامام أوصى بها أبا مسلم حين أرسله الى خراسان. فالوصية ينقض بعضها بعضاً في المعنى فهي تطلب من أبي مسلم أن يعتمد على اليمن، وأن يحاول استمالة ربيعة في خراسان وأن يعد مضراً عدوه الخطر، ومع ذلك تريد منه ألا يدع بخراسان عربياً. وهي ترد في روايات ضعيفة، وبأشكال مختلفة. ولكنك إن أمعنت النظر في تصرفات أبي مسلم عند ذهابه الى خراسان وتصرفاته بعد دخوله مرو ثم انتصاره على نصر بن سيار، فهمت الوصية وعرفت أنها وضعت لتلخص خطة أبي مسلم. فنحن نفهم تأريخياً أن أبا مسلم حاول عند مجيئه التكتم وإخفاء نواياه، فحالف اليمن وحاول التفاهم مع ربيعة (وكلتاهما ساخطة على سياسة مروان القيسية وعلى ممثله نصر بن سيار الذي اعتمد على المضرية وحدهم)، فلما نجح في ذلك وتغلب على قوة مضر عاد ينكل بالعرب من مختلف الكتل لأنه وجد انهم لا يخلصون لقضيته في خراسان. وهذا يفسر الفقرة الأخيرة التي توصي بقتل كل العرب حتى من بلغ خمسة أشبار. وفهمت أنها توضح خطته وخطة العباسيين بعد انتصارهم في القتل على التهمة لخطورة الأحوال التي لا تسمح لهم بالتروي والتثبت. وهكذا تلاحظ اني حين أثبت أن الوصية المذكورة موضوعة على لسان ابراهيم الامام أعود استنتج منها سياسة أبي مسلم الخراساني تجاه العرب بضوء المعلومات التأريخية الأخرى.

ولأذكر لك مثلاً آخر ، إنه حديث ينسب الى الرسول ، لا أشك في أنه ليس من الصحيح لاختلاف أشكاله ولاضطراب طريقة روايته ولأنه من أحاديث الفرق ، وهو حديث يذكر أن شخصاً من تميم اسمه حرقوص بن زهير اعترض على قسمة الرسول لبعض المال بين من حوله إذ آثر نفراً تألفاً لقلوبهم . إذ قال للرسول : « أعدل يا رسول الله » فقال الرسول (ص) : « ويحك ومن يعدل اذا لم أعدل » ثم قال (ص) : « إنه يخرج من ضئضيء هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » في رواية ، ثم تتم الرواية بمشاهدة هذا قتيلا بين الخوارج في النهروان . فالحديث هذا هدفه بيان أن الخوارج يمرقون من الدين . ولكننا حين نعود لتحليله بضوء النتف التي نجمعها عن الخوارج من الطبري والبلاذري وابن أبي الحديد ونصر بن مزاحم (صاحب كتاب صفين) والكامل للمبرد نرى أنه يفيد أن الخوارج الأولين كانوا في عامتهم بدواً ، خرجوا لنزعتهم البدوية التي تأبى الخضوع لسلطة وبعصبيتهم وعدم ارتياحهم لسيادة قريش ، وأنهم حديثو عهد بالاسلام (وليسوا بقراء كما يحاول بعض المؤرخين تصويرهم) لأنهم يقرأون القرآن فلا يفهمون منه شيئا . وأنهم يسهل عليهم الخروج على الدين لعدم فهمهم له [1] . وهكذا نرى أن حركة الخوارج في أولها ملخصة في هذا الموضوع - بصرف النظر عن الدافع لوضعه (وهو مهاجمة الخوارج وتشويه حركتهم برغم أنها تطورت بعدئذ) .

(٧) ولا بد أن أشير - في النهاية - الى أن هناك خلافا حول ما تنطوي

---

(١) لا تتسع هذه الملاحظات وفي أحيل القارىء الى الطبري (ج ٦) ص ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٠ . والكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٥٢٨ ، ٥٣٠ . ونصر بن مزاحم صفين ص ٥٨٩ ، ٥٦٠ - ٥٦١ ، ٥٦٣ . وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٠٢ ، ٢١٤ ، ١٨٦ . وتلبيس ابليس لابن الجوزي ص ٩٢ للمقابلة والاطلاع . ولينظر ان شاء تفسيراً يخالف هذا في أدب الخوارج لسهير القلماوي ص ٢ - ٧ .

عليه كلمة التأريخ . فبعضهم يقصرها على المعلومات المجردة دون تعليل أو تحليل . فاذا كان ثمة تحليل وابداء رأي أدخل ذلك في فلسفة التأريخ . وبعضهم يخالف في هذا ، إذ لابد من أن يظهر أثر فكر الكاتب . وهذا يبدأ في بيان أهمية بعض المعلومات بأخذها وترك غيرها مما لا يرى لها قيمة . فمجرد اختيار المعلومات فيه نظر ، كما أن الحوادث لا قيمة لها ولا معنى دون نقد وتحليل وربط واستنتاج . واني ممن يميلون الى الرأي الثاني . وإني لأعجز عن تصور التأريخ هيكلا جامداً ليس فيه إلا العظام .

(٨) كما ان القارىء لاحظ أن هناك دراسة تفصيلية لموضوع محدود أو دراسة شاملة عامة لفترة واسعة تتعدى النظر في الجزئيات الدقيقة الى دراسة الاتجاهات وتحليل التيارات . وهذا النوع الثاني يعبر عن (النظرة الشاملة) في التأريخ ، واني أعدها آخر مرحلة في البحث التأريخي . فهي التي تفتح الآفاق المجهولة وتنير الطريق للسارين .

وفي ختام هذه المقدمة ، اعتذر للقارىء عن إني لم أقدم اليه معلومات بالشكل المألوف . ولم اتبع الطريقة التقليدية ، وليست كل بدعة حسنة . ولكني أقول إني فعلت ذلك متعمداً لأني إنما أردت أن أجعله يعيد النظر فيما ألف ، ويعيد التفكير في كثير من آرائه وبديهياته في تأريخ العرب . لأني أخشى أن يختنق هذا التأريخ في الغيوم الكثيفة من البخور التي أحرقناها لتحميه وفي الغازات المخدرة التي نفثناها فيه فكادت تقطع عليه أنفاسه ، و كادت تحجب عن أبصارنا جوهره وقد نفرت عنه الكثيرين .

وإنما الاعمال بالنيات ، والله يعلم اني قصدت الحق وهو الهادي إلى الرشاد .

نظرة شاملة الى صدر الاسلام

(١) تتكون الحضارة عامة نتيجة تفاعل الانسان والبيئة بمظاهرها ونواحيها المختلفة . ويكون تحكم البيئة الطبيعية قويا في المجتمعات الاولية خاصة . كما أن المجتمع يؤثر هو أيضا ويؤدي الى تطورات جديدة . وهكذا تتبادل التأثيرات وتتوالى ، وتساعد على التطور بالمعنى الشامل .

ويتمثل أثر الطبيعة لقطر ما في مناخه وامطاره ، في طبيعة أرضه ومجاري مياهه ، في موارده وثروته الطبيعية وفي موقعه الجغرافي . ويكون أثرها عامل استمرار وصلة خلال تطور البلاد التأريخي ، من النواحي المختلفة ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، من حيث الاتجاهات العامة على الاقل .

ولسنا نريد أن نثبت أن العوامل الجغرافية هي العوامل الاساسية ، بل نريد تبيان ان تاريخ أمة ما لا يمكن فهمه دون فهم بيئتها الطبيعية ، وأن هذه البيئة من الاسس الهامة في تطور ذلك التأريخ .

فالجو يؤثر في طباع السكان ونفسياتهم ، في نشاطهم وخمولهم ، كما أنه يؤثر في تكوين أجسامهم ولون بشرتهم . وخصوبة التربة ووفرة المياه تساعد على توجيه فعالياتهم نحو الزراعة مبدئيا ، كما أن الجدب أو الجفاف يحفزهم الى اتجاه آخر ، رعوي أو تجاري . ووقوع البلاد على طرق المواصلات يشجعهم على العمل التجاري ، ويساعد على اختلاطهم بغيرهم ، وعلى اتصالهم بثقافات أجنبية ، وعلى التمازج البشري بينهم وبين غيرهم أحيانا . والموقع الجغرافي له أثر في توجيه السياسة العامة ، أو في إحداث نوع من الصلة السياسية بين البلاد والبلاد الاخرى .

ولننظر الآن الى البلاد العربية التي تدعى بشبه جزيرة العرب نر انها صحراء واسعة في الوسط لا أنهار فيها بل تحوي ودیانا ومجاري موقتة . وليس فيها

ما يساعد على حياة الاستقرار في تلك المنطقة . وتمتد السهول الخصبة في الشمال منها وهي التي تعرف بالهلال الخصيب الغني بمياهه الوافرة وأراضيه الخصبة. وتنتشر الجبال في الغرب والجنوب ، وهي إما في مناطق قاحلة كالقسم الغربي ، وهو الحجاز ، وغالبه واد غير ذي زرع ، تنتشر فيه منابع وواحات، كالطائف وخيبر والمدينة ، أو انها تكون جبالاً فيها السفوح الخصبة التي قد تتخللها الوديان الوفيرة المياه في بعض المواسم ، كاليمن .)

[ولذلك كان طبيعياً أن تنشأ المجتمعات الحضرية المستقرة على الاطراف ، كما في الهلال الخصيب واليمن ، وبعض مدن الحجاز ، وأن يكون الوسط بدوياً رعوياً.

وشبه جزيرة العرب في مركز جغرافي ستراتيجي هام . فهي وسط العالم القديم ، وعلى طرق التجارة العالمية ، ولاسيما الطرق التي تصل الشرق الاقصى والهند وأواسط آسيا وايران بحوض البحر الابيض وبالبحر الاحمر [ولذا صارت التجارة عصب الحياة الاقتصادية لاكثر الدول التي تكونت في هذه الربوع . وغلبت الصفة التجارية على المجتمعات الحضرية . واتسع المجال للتبادل الثقافي بين مراكزها التجارية والثقافات الاجنبية في بعض الفترات]

[ويحيط بها البحر من ثلاث جهات ، فقلل ذلك مجال التمازج البشري بين عناصرها والعناصر الاجنبية ، وحدد اتجاه التوسع البشري لسكانها . ولما كان البحر يحيط بها من الشرق والجنوب والغرب ، اتجه انتشار سكانها الى الشمال وأحيانا الى الغرب خلال برزخ السويس . وإذا ما أمعنا في السير شرقا وشمالا وجدنا الجبال تحف بها . فاذا تجاوزنا الجبال انتقلنا الى مناطق تختلف في بيئتها الطبيعية عن طبيعة بلاد العرب . لذا كان الانتشار الطبيعي لسكانها محدوداً ، في الظروف الاعتيادية ، بهذه الجبال . وهذا يفسر انتشار العرب في الهلال الخصيب وشمالي أفريقية ، وعدم نجاحهم في التوطن في ايران برغم سيطرتهم عليها مدة طويلة ، وخيبتهم في التغلغل في الاناضول .

واذا أمعنا النظر في الحياة في الجزيرة العربية نجدها متأثرة كثيراً بالظروف الطبيعية التي أشرنا اليها . فوسط الجزيرة بدوي ، عماد حياته الاقتصادية المرعى والماء القليل . وهذا يؤدي الى نزاع شديد عليها ، والى حياة كفاح مستمر للبقاء . وهذا النزاع كان أساس أيام العرب في العصر الجاهلي } [تتطلب هذه الطبيعة القاسية التمرين المستمر على القتال . أما المهن فهي موضع احتقار لذلك تركت للضعفاء . وأصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية وعسكرية لتكوين العصبة والقوة ، ولأن القبيلة كانت هي الكائن الاجتماعي الطبيعي في هذه البيئة أصبح الولاء لها ضرورة لازمة للدفاع عن النفس والحماية } وأصبحت التقاليد والعرف الناتج عن التجارب هي القانون السائد المحترم . ولم يبق مجال للوراثة في الحكم لأن القوة والعصبة لازمتان للشيخ ، ولأنه لا يمكن الاعتماد على المصادفة التي تصحب الوراثة لصعوبة الحياة . وأصبح الوفاء خلقاً تتطلبه هذه الحياة . ولا تنشأ الكتابة في البيئة الصحراوية لأنها فن حضري . ولذا لم ينشأ الخط في وسط الجزيرة بل نشأ في أطرافها ، فالخط المسند ظهر في الجنوب والخط النبطي الذي هو أصل للخط العربي ظهر في الشمال ، وتطور شكل آخر في جهة الحيرة ، ولكن ملكة الحفظ والكلام ونظم الشعر والقاء الخطب تزدهر في مثل البيئة الصحراوية وتتطلبها حياتها القلقة وظروفها الصعبة . وللطبيعة العارية والغزوات المستمرة أثر في إرهاف الحس وشبوب العواطف .

[كما أن صفة التكرار وقلة التبدل في البيئة الصحراوية تؤدي الى استمرار التقاليد وثبوت العادات والمحافظة الاجتماعية عامة } ولكن التنقل المستمر والتماسك القبلي لا يساعدان على تكوين لغة موحدة بل يؤديان الى تكوين لهجات كثيرة والتقريب يتطلب وقتاً طويلاً بين تلك اللهجات واندماجها في لهجة موحدة تصبح اللغة العامة .

ثم ان احاطة الجزيرة بالمياه من ثلاث جهات ووجود صحراء في الشمال والوسط أديا إلى المحافظة البشرية أو نقاء الشعب وعدم التمازج البشري . ولذا كان العرب من أنقى الشعوب السامية . ويجب ألا ننسى أن قسوة طبيعة الجزيرة لم تشجع على الهجرة اليها ، إضافة إلى أنها نفسها تعرقل تغلغل العناصر الأجنبية فيها . وبذلك أصبح وسط الجزيرة مخزن الاحتياط العربي البشري .

أما الدول التي تكونت في الأطراف ، فان عامتها تجارية لوقوعها على طرق التجارة كالدولة المعينية والسبئية والحميرية في اليمن التي على طريق الهند البحري المشهور . وبعضها على طرق التجارة البرية كما في الغرب والشمال . ففي الشمال ظهرت دولة اللحيانيين (٥٠٠ ـ ٣٠٠ ق . م) ثم دولة الانباط (القرن ٢ ق . م ـ القرن الأول الميلادي) على الطريق الغربي في الجزيرة بين اليمن والشام . ثم تدمر (التي بلغت أوجها في القرن ٣ م) على الطريق من العراق إلى الشام .

نشطت هذه الدول عامة بنشاط حركة التجارة على الطرق التي هي عليها ، وضعفت بتحول تلك الطرق عنها . اعتل السبئيون حين تحولت التجارة بين الهند وحوض البحر الابيض والاحمر من الطريق البري المار بمأرب في الغرب إلى البحر من ساحل حضرموت إلى باب المندب والبحر الاحمر في القرن الأول ق . م . فخسروا احتكارهم لتجارة الشرقية ووافق ذلك النشاط التجاري للبطالسة . ونشط الانباط في فترة تراخي الحميريين واستفادوا من حلف الرومان . ونشأت تدمر الجميلة حول منابع ماء في الصحراء وازدهرت بنشاط الطريق التجاري الشرقي وأثرت . واستفادت من التوازن الدولي بين البيزنطيين والفرس وضعف الانباط بتحول الطريق عنهم . ولم تبق فعاليات تدمر تجارية خالصة بل صار لها طموح سياسي فاختل التوازن وفقدت مركزها وكيانها .

[وضعف الحميريون لظهور النشاط التجاري الحبشي البيزنطي ، وسقطوا ضحية هذا الحلف الخطر .]

[وازدهرت مكة لوقوعها على الطريق التجاري الغربي ، ولأنها استطاعت تنظيم علاقاتها التجارية مع القوى السياسية المتناحرة البيزنطية والفارسية دون أن تنحاز الى جهة و كانت فترة نشاطها بعد خمود النشاط التجاري في الجنوب والشمال .

ومن هـذا يتضح أن العرب الحضر كانوا تجاراً بالدرجة الاولى ، تميزوا بانهم كانوا وسطاء - كما قال سترابو في القرن الاول قبل الميلاد .

وأصبحت حضارتهم متأثرة بحركة التجارة ، ومعنى ذلك أنهم اتصلوا بالشعوب المجاورة وابتعدوا كثيراً عن روح البداوة . ولعل هذا يوضح تعقيد حضارة تدمر والانباط ، ولعل دراسة هذه الناحية تكشف افقا جديداً في بعض النواحي الغامضة كالشبه القوي بين بعض مظاهر الحضارة اليمانيـة (في العبادة والري مثلا) وحضارة وادى الرافدين ، والشبه بين تنظيم مدينة بطرا ومدينة مكة قبل الأسلام .]

أما وسط الجزيرة فقد كان المنبع البشري الذي يفيض دوما على الأطراف . فالجفاف ، وقلة الموارد المعاشية ، وكثرة التناسل ، وخصب الهلال الخصيب وغناه ، ووجود مجار لطرق التجارة ، كل ذلك أدى الى حصول تسرب البدو المستمر الى الهلال الخصيب ، بهيئة هجرة سلمية محدودة أحيانا ، وبهيئة غزو واكتساح احيانا . وهـذا هو ما حصل في الموجات السامية التي غمرت الهلال الخصيب ، و كانت خمساً ، أولها حوالي سنة ٣٥٠٠ ق . م . ، و كانت تحصل في فترات تبلغ حوالي الف سنة . وتنتهي هذه الهجرات الواسعة عادة بتكوين مجموعات مستقرة ، أذ يسكن الفاتحون والمهاجرون بجنب القارين ، وينشئون قراهم في جوارهم أو يقيمون في مدنهم ، ويتمثلون في العادة لغاتهم وثقافتهم تمثلاً

تدريجياً . وآخر هذه الموجات هي الموجة العربية التي نستطيع أن نقول إنها بدأت في القرن الثاني الميلاد بصورة بطيئة وأدت إلى تكوين دولتي الغساسنة والمناذرة على طرفي الصحراء منذ القرن الثالث للميلاد ، ثم تجمعت وتحفزت وانطلقت قوية شاملة في الفتوحات الاسلامية فغزت الهلال الخصيب وشمالي أفريقية وبلغت طلائعها أواسط آسيا وجنوبي فرنسا .

وهكذا يتلخص تاريخ الشرق الأدنى في توثب البادية على الأراضي الخصبة ، وفي الصراع المستمر بين البادية والحاضرة . فتكون الغلبة البشرية للبادية والأثر الثقافي عادة للحاضرة في المرحلة الأولى في الأقل .

ثم إن سعة الارض في وسط الجزيرة وقسوة الطبيعة وصعوبة المواصلات وتفشي البداوة منعت نشوء دولة موحدة وأبطلت التنظيم السياسي الصحيح . ويجب ألاّ ننسى بأن الوسط الصحراوي لا يهيء المواد التي تكون الدولة . فالولاء للارض يمنعه الترحل ، ووحدة الشعور والتعاون تعوقه صعوبة الحياة والتنازع على البقاء حتى بين المجموعات القريبة ، والانتشار في الارض يساعد على تعدد اللهجات ، والحدود لا مفهوم لها . وآخر ما يمكن من الولاء هو العصبية للقبيلة وهي عصبية مفرقة . لذلك لا يفهم البدوي الخضوع لسلطة بشرية خارج قبيلته ، ولذلك لا يدرك فكرة الدولة

(١) وهكذا عمت الفوضى السياسية وسط الجزيرة قبل الاسلام وتنوعت اللهجات .

ولكن تطورات داخلية حصلت في الجزيرة ساعدت على نوع من التقريب وأعدت الوضع المناسب لحركة جديدة . ولعل العوامل الرئيسية في ذلك وجود البيئة الطبيعية الواحدة التي تؤدي الى حصول تقاليد وعادات متشابهة أو واحدة . ونشاط التجارة التي ساعدت على الاتصال بين مختلف جهات الجزيرة في الاسواق خاصة . ثم ضيق الموارد الماشية التي أوجدت نوعاً من التوثب .

والذي أراه هو أن التطورات الداخلية في الجزيرة هيأت الظروف - الى حد ما - لسيادة الاسلام ولوثبته . وليس معنى ذلك أن الاسلام ما جاء حتى رددته الجزيرة . فان صاحب الرسالة كافح كفاحاً خالداً وجاهد وعمل بقوة وصبر عظيمين حتى ثبّت دعوته ، ولكن الظروف مع ذلك كانت من العوامل المساعدة مساعدة أكيدة . ولعل الملاحظات التالية توضح ما أريد .

فنلاحظ من الناحية الدينية تنوعاً في العبادة بين الوثنية من جهة ، وأتباعها قليلون ، والأديان السماوية من جهة أخرى ، وفي الوثنية ذاتها نجد مختلف المراحل . فهناك أثر التوحيد السامي الاول والى جانبه عبادة الاجرام السماوية التي قد تعود الى البابليين ، وتقديس الآباء الاولين الى العبادة ، والطوطمية وما تمثل من الاعتقاد بدخول الارواح المقدسة في الاشجار أو الجماد كمجاري المياه ، والاعتقاد بالجن والشياطين وعبادة أوثان لا شكل لها وعبادة أصنام مختلفة . ويمكننا ان نلاحظ من الاساطير المختلفة المتصلة بالوثنية ما يوحي أن الناس كانوا يشعرون بأنها مستقاة إما من وادي الرافدين ، أو من الشام أو انها تطور للطوطمية .

ثم نشاهد تسرب بعض الشعائر والآراء من المسيحية واليهودية وخاصة في منطقة شمالي الجزيرة والقسم الغربي منها . ونحس بتطور في الوثنية من انفراد كل قبيلة بالهها الى شيوع تقديس بعض الالهة ويتلو ذلك تدرج عند بعض القبائل الى الشعور بوجود آله أعلى من الاوثان والاصنام المتعددة أطلقوا عليه اسم الله ، وتقديس بيته المشرف وهو الكعبة ، فصارت لها الطقوس والشعائر الخاصة التي وصلت ذروتها في الحج ، وجعلوا الاصنام وسيطة بينهم وبين الله وشافعة ، وهكذا حصل تطور في العقائد والمستوى الديني في اتجاه التوحيد . يضاف الى ذلك الاتصال ببعض العقائد المتعلقة بالاديان السماوية مما ولد شعوراً لدى بعضهم

بعدم مناسبة الوثنية لتفكيرهم ، بل لقد أدى لدى نفر منهم الى ثورة فكرية على الوثنية . هؤلاء هم الاحناف ، ويسترعي انتباهاً ظهورهم قبيل الدعوة الاسلامية .

ولكن هذه الحركة لم تكن عامة وربما كانت في الحجاز اقوى منها في اية جهة أخرى . وهي تشير الى أن العقلية العربية سمت على الوثنية البسيطة . ولكن ذلك لا يعني ضعف اثر الوثنية أو انهيارها في تلك الجهات . فللعادة قوة واهمية في شعب محافظ ، كما أن الشعائر الدينية وثيقة الصلة بالكيان الاجتماعي ، وبتقديس الآباء وليس من الممكن عد الآباء على ضلال . لذا كان للوثنية كيان حتى في الجهات التي سما تفكيرها على الوثنية .

ولكن النقطة الاساسية في هـذه الناحية هي حصول ذلك الوعي الديني في الجزيرة ، وربما كان من أثره ظهور الانبياء الكذابين ، وظهورهم — وأن كان يدفعه طموح شخصي — يدل على استعداد لدى القبائل لأن ينحرفوا عن الوثنية المعروفة بعض الانحراف .

وتكون في الجزيرة نوع من الوعي السياسي ، والميل الى شيء من التكتل في بعض الجهات . ففي منتصف القرن الخامس للميلاد تكونت في وسط الجزيرة مملكة قبلية نتيجة اجتماع عدة قبائل يمانية في وسط الجزيرة برئاسة رئيس واحد ، وتلك هي مملكة كندة . ولكن كان ينقصها العامل الأدبي الموحد ، وتعصف بها العصبية القبلية الخطرة . ولذلك لم تعش الا حوالي قرن . ١

كما أن طمع الأجانب من فرس وبيزنطيين واحتاش بالسيادة ، وضغطهم على العرب ، إضافة الى أثر الاسواق في التقريب بين العرب ، ولدت بعض الشعور المشترك . وقد ساءت علاقة عرب الحدود بالفرس والبيزنطيين قبيل ظهور الاسلام . فدولة الحيرة اصبحت محية ومحكومة حكما مباشراً ، والغساسنة انهار كيانهم وتوترت العلاقة بينهم وبين الروم . وإننا نشير الى الصراع بين بني شيبان

والفرس والى أثر ذي قار في احياء المعنويات والصدى الذي بعثه في الجزيرة .

وحصل ارتباك في الناحية الاجتماعية وتعطيل لفعاليات السلمية كالتجارة وفوضى مملة . وربما كانت الاشهر الحرم التي يوقف فيها القتال ثمرة محاولة لضمان شيء من الاستقرار في فترة معينة من السنة ليحصل فيها نوع من النشاط السلمي، تجاري واجتماعي ، وهي بحد ذاتها مظهر من مظاهر المحاولة للتوفيق بين متطلبات الحاضرة للاستقرار ومتطلبات حياة البادية المضطربة . وما النسيء أو تأجيل الاشهر الحرم الا رد فعل البادية ورغبتها في التلاعب حتى بتلك الاشهر . والنسيء مظهر من تلك المظاهر العامة في الجزيرة التي تدل على وجود نوع من الرأي العام المشترك .

وكانت الاسواق عاملا مهما في حياة الجزيرة قبيل الاسلام . كانت وسيلة هامة للتقريب بين العادات والاتجاهات ، وعنصراً فعالاً في تقريب الشعور واحداث نوع من الاتجاهات العامة . كما قامت بدور في تنشيط حركة التجارة وفي بث الثقافة والآراء . ولها أثر هام في التقريب بين اللهجات ، وفي تكون لهجة منتقاة موحدة ، تجمع اجمل ما في اللهجات وأمتنه ، فاستعملها الشعراء والخطباء ، واصبحت اللهجة الأدبية في الجزيرة . فكانت بذلك بداية حركة التوحيد اللغوي والقاعدة الأولى في نشوء اللغة العربية الفصحى . وإذا كانت اللغة وسيلة الثقافة الاولى ، وأساس تكوين الأمة ، وخلاصة ثقافتها وعبقريتها أدركنا أهمية نشوء هذه اللهجة الأدبية المختارة .

ولنلق نظرة على جهة من الجزيرة لاهميتها ، وهي مكة . فقد كانت قبيل الاسلام المركز التجاري الاول في الجزيرة ، سواء أكان ذلك بسبب امتداد فعاليتها التجارية الى أراضي الفرس والبيزنطيين في الشمال والى اليمن في الجنوب ، أم بسبب اسواقها التجارية التي كانت أهم أسواق الجزيرة ـ على كثرتها ـ وهي

سوق عكاظ ومجنة وذي المجاز . فاكتسبت ثروة وغنى ، وصارت ملتقى التيارات الثقافية النافذة الى الجزيرة . ثم هي المركز الديني الاول في الجزيرة ، يجتمع فيها عنصر المحافظة والزعامة الدينية ، بفورة التهكم على الشعائر والآراء الوثنية ، وربما كانت مركز حركة الاحناف . وفيها تلتقي الآراء المسيحية بالآراء الوثنية . وإن أولنا بعض الروايات اضفنا الآراء المجوسيـة لاسيما المانوية منها الى ما سبق . وكانت مكة تفيض بالحيوية الاجتماعية ، ففيها تكونت طبقة من المثرين المترفين ، الى جانب جماعات من الفقراء الذين أرهقهم الربا وسحقهم الاستغلال . فكان فيها من يتحمس للوضع ، وفيها من يضطرم بالسخط مما فيه . فهي إذن مجمع المتناقضات بين ايمان بالوثنية وحماس لها وبين ازدراء لها وتهكم بها ، وبين جماعة مترفة وأخرى بدوية خشنة ، وبين مثرين هانئين وفقراء ساخطين متوثبين . فهي شقاء ونعيم في آن واحد .

ومع أن اوضاعها الاجتماعية والسياسية تستند الى تقاليد القبيلة ، فان نظام المشيخة كاد يزول منها ، والملأ فيها يختلف عن مجالس القبائل بوضعه واتجاهاته . ومع أن تلك العصبية موجودة فيها نرى أن عصبية الاتحاد أبرز من العصبية العامة ، والروح العسكري ليس له مثل تلك القوة ، حتى انها استخدمت الاحابيش وبعض الاعراب لحماية قوافلها .

فمكة مركز حضري ، يسير مبتعداً عن البادية برغم وجود التقاليد البدوية الظاهرة . وكان من المنتظر ان توجها تجارتها وأسواقها والحج الى كعبتها وجهة تناقض الاتجاهات البدوية لدى القبائل .

يتبين مما مر أن الدور الجاهلي لم يكن دور همجية وافلاس حضاري كما يصورونه لنا ، بل كان فترة حضارة عريقة . فحضارة الجنوب تعود الى ما يسبق الالف الاول قبل الميلاد ، وما كانت الفعالية الحضارية تضعف في جهة حتى تقوى

في أخرى من معين المتصلة بوادي الرافدين وبالشام ، وسبأ التجارية ، والانباط الوثيق الصلة بالحضارة الهلنية ، وتدمر المتصلة بالحضارتين الفارسية والبيزنطية ، والحيريين أصحاب الخط السند والقصور الشامخة ، والمناذرة احلاف الفرس ، والغساسنة احلاف الروم ، والمجتمع المكي المتصل بمختلف الجهات .

إن موجة البداوة كانت تعم وسط الجزيرة قبل الاسلام وأخذت تتوسع إلى بعض الاطراف ، إلا أن الحضارة لها أهميتها . ويكفينا غنى اللغة العربية وازدهار الشعر العربي بياناً قوياً على مستوى فكري وحضاري حسن .

ولا يهمنا أن نرد على المؤرخين الذين حاولوا تشويه التاريخ الجاهلي بنية حسنة وهي تمجيد الاسلام ورفع شأنه ، وهم بنيتهم الطيبة لا يحققون غرضهم ذلك بنظرنا ، لأن التربة التي ينمو فيها الدين لها أثر في تطوره ونموه وفي اتجاهاته . وهم بموقفهم هذا جعلوا بعضاً من المؤرخين يتهم الحركة الاسلامية بأنها حركة بدوية ، وهذا يناقض أسسها واتجاهاتها .

ظهر الاسلام في بيئة مكة الحضرية وكانت توجيهاته وتعاليمه حضرية في أسسها ، قد وقف ضد تيار البداوة وضد اتجاهاتها في كثير من الامور الاصلية .

ويكفينا هنا ان نذكر بعض مميزاته :

حاول الاسلام ان يكافح الاتجاهات القبلية ، ويظهر ذلك بقوة في مكافحة عصبيتها ، واحلال رابطة جديدة بين الافراد تحل محل رابطة الدم ، تلك هي رابطة العقيدة والايمان ، وابدل بفكرة الغزو في سبيل الثار أو المرعى والماء فكرة الجهاد في سبيل الدين والمبدأ ، والحرب المنظمة في سبيل حماية الامة والدفاع عنها ، وبتجاوز الحدود القبلية تكوين الامة التي هي فوق القبائل والتي وضعت مصلحتها فوق كل مصلحة اخرى . ومع ان القبيلة بقيت وحدة اجتماعية فان الرسول حاول ان يذيبها في الامة .

وادخل الرسول - عن طريق الدين - فكرة الدولة والقانون الى العرب ليقابل فكرة القبيلة والعرف ، ففكرة السلطة الخارجة عن القبيلة غريبة على البدو ، وهم لا يعترفون بأي قانون خارج تقاليد القبيلة . فادخل الرسول فكرة الدولة باسم الله ، وجعل الشريعة القانون العام ، فهي فوق كل شيء لأنها القانون الالهي . ولم يجعل فكرة الدولة على أساس انها مؤسسة في رقعة أرضية معينة ، وانما هي هيئة اجتماعية ، هي الأمة . وجعل الرسول السلطة الدنيوية والهداية الدينية مجتمعتين في شخصه الكريم ، ولم يميز بين ناحية دينية وناحية سياسية بل جعلهما متلازمتين ، فالدين هو الذي يحفظ الوحدة في الأمة .

وعدل الرسول بعض الاتجاهات القبلية . فمثلا أخذ الثأر من الاقارب جعله على عاتق الامة ، أي أنه حوله من ثأر الى عقوبة . ومع ذلك ترك لاقارب القتيل أن يختاروا بين قتل القاتل أو قبول الدية ، وابقى الحج وهو من جملة الشعائر الجاهلية ولكنه وضعه على أساس توحيدي جديد حين أوضح أنه يكون جزء من شريعة ابراهيم الخليل ، وان الوثنيين لوثوه .

واهتم بالنواحي الاجتماعية ، فاكد المساواة التي تتعدى حدود القبيلة وكافح الاستغلال بان أكد التعاون والمساعدة في الحقول المادية والادبية وحرم الربا وهو وباء المجتمع المكي ، ومنع اكتناز الذهب والفضة وحث على انفاقهما في سبل الخير انقاذاً للهيئة الاجتماعية من التفسخ . وشجع الصدقة بمعنى الهبة أول الامر ، ثم جعلها فرضا لازما يدفعه الاغنياء لمساعدة الفقراء واعالتهم وللتخفيف من التفاوت الاجتماعي وما يصحب ذلك من اخطار .

ووجه عناية خاصة الى تهذيب الاخلاق ، لانها أساس النهضة وعماد الاصلاح . فأكد الوفاء ، والامانة ، والصدق ، والمحافظة على العهد ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومكافحة الظلم ، وتقديم مصلحة الامة على المصلحة

الفردية ، والرفق بالضعفاء ومساعدة المحتاجين . وعني بتقوية روح الجماعة حتى في شعائر الدين كما في الحث على صلاة الجماعة .

وأدخل الرسول مبدأ التدرج في تشريعه ، واعترف بالتطور . وهذا خلاف المحافظة التي تستقر بها البداوة وتستند اليها ، وخلاف المصالح المتأصلة في مكة . ووردت الاشارة الى ذلك في القرآن ففيه ناسخ ومنسوخ « وما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » وبين أن الشرائع الآلهية واحدة في الاسس الا أنها تختلف في التفاصيل والاسلام آخر مرحلة . وبذلك جعل في الاسلام حيوية وحركة مستمرة . وانك لتلمس التدرج في دعوته . فقد تدرجت من الاهل الى العشيرة الاقربين ، الى مكة والعرب ، الى العالم .

وفي الناحية السياسية ، لا نحس في مكة الا ان اتباعه يسترشدون به في كل شيء ولا يعترفون لغيره بشأن ، فلما هاجر الى المدينة بدأ بالمؤاخاة وهي أول تنظيم اجتماعي سياسي . ثم وضع « الكتاب » في المدينة بعد ثبات كيان الاسلام على أثر بدر وهو أول دستور شامل ينظم شؤون الأمة في المدينة . وكان الوضع بعد عام الوفود يتطلب تنظيما جديداً ولكن توالي الاحداث وعدم اكمال توحيد الجزيرة لم يفسحا للرسول المجال لتنظيم أمته في مرحلتها الجديدة من الناحية السياسية .

جاء الاسلام وهو دعوة جديدة وحركة شاملة ، انتشرت ولكنها لم تعم الجزيرة ، ولم يمض عليها زمن كاف لأن تعمها . وهي إن انتشرت ، فان دوافع من دخل فيها كانت مختلفة ، فبعضهم دخل لهداه وايمانه ، وبعضهم لطمعه في الامتيازات ، وبعضهم قبلها خوفا من سلطانها . هذا والدعوات الجديدة تحتاج الى زمن لتفهم ، كما أن القديم لابد أن يصارع الجديد صراعا يختلف قوة وامداً بحسب الاوضاع ، قبل أن يتلاشى أو يضعف . ولابد أن تظهر آثار ذلك

الصراع . وهذه ناحية أراها مغفلة في دراسة تأريخ الاسلام ، ولكنها بالغة الخطورة، ولا إخالنا نفهم ذلك التأريخ بدون فهمها . بل أعتقد أن هذا الصراع كان من أهم العوامل في تطور التأريخ الاسلامي في فترة صدر الاسلام .

وقد تمثل القديم في التقاليد القبلية ، وتمثل الجديد في الدعوة الاسلامية . فحدث صدام وصراع في زمن الرسول ، واستمر هـذا الصدام والصراع بعد وفاته بين هذين التيارين الرئيسين : التيار القبلي والتيار الاسـلامي ، ودارت حولهما أهم أحداث التأريخ العربي في صدر الاسلام .

ولقد كانت وجهة التيار الاسلامي نحو توحيد الجزيرة سياسياً ودينياً ، وتوسيع رقعـة الاسلام وإبادة عوامل الانقسام ، وسيادة الأسس الاسلامية في الحياة العامة ، أما اتجاه التيار القبلي فـكان نحو إضعاف الاتجاه المركزي ونحو استمرار التقاليد العربية القبلية برغم اصطدامها احيانًا بالمبادىء والاتجاهات الاسلامية .

وإني لاكتفي في هذه المقدمة بتوضيح أثر هذين الاتجاهين مع الاشارة الى ما استجد خلال سير الأمة العربية من عوامل هي في الغالب تتمة لهذين الاتجاهين.

لقد كانت قوة الرسول وعظمة تعاليمه التي تتمثل حية في شخصه وتعاظم نفوذ المسلمين عوامل فعالة في إضعاف قوة الاتجاهات القبلية في حياته .

ويمكننا أن نلقي نظرة خاطفة على تدرج هـذا الصراع في حياة الرسول . فانه بدأ دعوته في مكة يبشر وينذر . وكانت المصالح والنزعات تقف سداً في طريقه . فهنـاك أهل الترف والثروة والجاه الذين يرون في الاتجاه الجديد الذي يدعو لانصاف الضعفاء والرفق بالفقراء ولا يشجع على كنز الاموال ، خطراً على مصالحهم . ويرون في الدعوة الجديدة تهديداً لمركز مدينتهم الديني ، وعليه تعتمد أسواقهم وتجارتهم وحرمتهم اعتماداً كبيراً فلم يرتاحوا لها . واقلقهم أن

يلتف حول الداعي الجديد الفقراء والمستضعفون فخشوا اضطراب الوضع الاجتماعي واختلاله . ولم يرتاحوا لرجل من أوساط الناس يلتقي بدعوة تجمع الرئاسة الدينية والزمنية في شخصه « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وكيف يتنازل الملأ وزعماؤه عن نفوذهم ليتيم من مكة ! وكافحوا دعوته التي تضلل احلامهم ، وتسفه آباءهم ، وتهاجم قوة العادة والتقاليد من أساسها ، ولا ترى لأي عرف عندهم قدسية ، وهم قد درجوا على احترام السلف وعلى تقديس العرف . والدين إن لم يكن عقيدة شخصية مهمة ، فهو رابطة اجتماعية كبيرة ، تنظم حياتهم وعلاقاتهم ، فجاءت الدعوة الجديدة تهدد هذه الرابطة وتسفه الخلف والسلف . اجتمعت هذه العناصر في مقاومة المكيين .

ولكن الرسول (ص) جريء قوي مؤمن برسالته . ثم إن بني هاشم من أسلم ومن لم يسلم ، وقفوا يحمونه — الا أبا لهب — مدفوعين بقوة العصبية . وخافت قريش من اتخاذ التدابير الحاسمة ضده خوف الفتنة الداخلية . فاستمرت الدعوة بطيئة ولكنها أكيدة . وجربت قريش مقاطعة صاحب الدعوة وهي مكافحة اجتماعية سلبية لبني هاشم ، فلم تفلح وكان للعصبية القبلية أثر في اخفاقها . ولم تنهج قريش طريقاً حازماً إلا بعد وفاة أبي طالب ، ولكن الهجرة انقذت الرسول والمسلمين .

جاء الرسول إلى المدينة والمسلمون فيها اقلية ضئيلة . ولكن المدنيين ، المسلمين منهم وأقرباءهم الوثنيين قرابة طبيعية — يرتبطون معه بحلف لحمايته مما يحمون منه أنفسهم ، وخدمت العصبية القبلية الرسول في المدينة من ناحيتين : أولاهما أن أهل المدينة أخواله (من جهة أبيه) ، فبينه وبينهم نسب ملزم ، وثانيهما أن هذه العصبية منعت وجود سلطة موحدة فيها ، فهناك الخزرج والاوس

واليهود ، مع ما بينهم من أحقاد وثارات ، مما مهد السبيل ، مع الدعوة ، ليصبح المسلمون أقوى كتلة في المدينة وخصوصاً بعد بدر .

واتجهت تدابير الرسول في المدينة نحو تحقيق وحدة داخلية وتكتيل كل ما في المدينة من قوة ، ثم توجيه هذه القوة على قريش . و كان الاتجاه الاسلامي يمثل قوة نامية تفيض بالحيوية في وسط يخيم عليه الركود والارتباك . وقد أستطاع الرسول بعبقريته الفذة وشخصيته الجبارة أن يتفوق تفوقاً ملحوظاً .

بدأ الرسول بنظام المؤاخاة ، والمؤاخاة معروفة لدى العرب ، ولكنه جعلها عامة لافردية ، جعلها تستند إلى أساس ديني لا إلى الدم كما هو الحال عند القبائل . فآخى بين المهاجرين والانصار ليوثق الروابط ولينقذ المهاجرين من الضائقة المالية .

وبعد أن انتصر في بدر . وضع « كتاباً » بين المهاجرين والانصار ، نرى فيه أساساً لتنظيم المسلمين . فكون منهم « أمة واحدة من دون الناس » تربطهم رابطة الدين ، وتجمعهم العقيدة . ومع أنه اعترف شكلياً بوجود الافخاذ والبطون وحدات اجتماعية في الامة ، تقوم بدفع الفدية والدية على النحو الذي كان معروفاً ، الا انها لم يبق لها كيان . فالمرجع الاعلى هو الرسول رئيس الأمة ، والامة تضم افراداً من قبائل مختلفة مما ينافي الأسس القبيلية . والدستور الذي تسير عليه هو القرآن وسنة الرسول ، لا العرف ولا التقليد القبيلي . وواجب الثار على المسلم لأخيه أي أن الأمة — لا الاقرباء — هي المسؤولة عن كل حدث . وبذلك استحالت فكرة الثأر إلى عقوبة مدنية . وجعل السلم والحرب مسؤولية مشتركة للامة لا مسائل فردية .

وعندئذ وجه الرسول هذه الامة المتحفزة بصورة أقوى واكفأ على مكة ، وعدها الخصم الأول للامة ، فكافحها سياسياً بمحالفاته ومناوراته بعد صلح

الحديبية خاصة ، وكافحها ماليـاً بقطع طرق مواصلاتها وتهديد تجارتها بالدمار ، وكافحها باحداث ثغرات في صفوفها حتى تغلب عليها .

ثم قوي نفوذه في الجزيرة بعـد التغلب على هوازن وفتح الطائف ، حتى صار يحسب لسلطانه كل حساب ، وتوالت الوفود من الجزيرة . ولكنه مع نفوذه لم ينشىء ادارة مركزية بل ترك للقبائل كيانها واوفد عنه ممثلين اليها لنشر مبادىء الدين ولجباية الزكاة والعشور . وهذه خطوات ثابتة نحو الحد من القبلية. كما انه بحملته التهذيبية الـكبرى لتعليم مبادىء الاسلام ، اشتغل بجد من ناحية تعليمية لتبديل الاوضاع ، ولـكن الفترة الزمنية كانت قصيرة جداً لتغلغل الدعوة الجديدة .

توفي الرسـول (ص) فانفتح الباب لتظهر النزعات المـكبوتة حدتهـا ، ولتؤكد عناصر الانقسـام قوتها . فبانت أول ظاهرة للاصطدام بين التيـارين الاسلامي والقبلي بشكل عنيف جارف نطلق عليه أسم «حروب الردة» . والذي نفهمه من الروايات العربية أن الجزيرة كلها اسلمت في حياة الرسول ، وخضعت للمدينة ، ثم ارتدت أو تزعزعت بعد وفاته . وكانت حروب أبي بكر المرتدين لارجاعهم إلى الايمان .

ولـكن النقد يدل على عدم دقة ذلك ، وان القبائل خرجت على المدينة لأسباب مختلفة . فهناك قبائل قدمت ولاءها السياسي للرسول . وعدت هـذا الولاء شخصياً — بحسب التقاليد — ينتهي بوفاة الرسول . وبعضها ، مثل قسم من القبائل في شمالي الحجاز ، كانت لها معاهدات تنتهي بوفاة الرسول . هـذه القبائل لم تر موجبا للخضوع لأبي بكر ، ويمثل حالها قول الشاعر : —

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ۞ فيا لعباد الله ما لأبي بكر
ايورثنا بكراً إذا مات بعده ۞ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وتوجد قبائل مسلمة ، ترى في دفع الزكاة خضوعاً مهيناً لها ، مثل بعض بني تميم ، وكانت مستعدة للتمسك بالاسلام دون أن تدفع الزكاة . مر عمر بن الخطاب بقرة بن هبيرة وحوله عسكر من بني عامر ، فقال قرة « يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالاتاوة فان انتم اعفيتموها من أخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع وان أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم » . وهو بهذا يجعل الزكاة اتاوة أو ضريبة خضوع . وقد كان أبو بكر دقيقاً في ملاحظة النزعة القبيلية الخطرة حين عد عدم دفع الزكاة انشقاقا على الامة ، وخروجا على المدينة .

وهناك العصبية القبيلية التي تتمثل في رغبة القبيلة عن الخضوع لسلطة خارجية وهذه تتمثل في الرغبة عن دفع الزكاة ، وفي تحزب الكثير من القبائل على سلطان المدينة . ومن أمثلة ذلك ما فعله عيينة بن حصن زعيم غطفان ، فقد قام في قومه وقال « ما اعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين أسد ، واني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة ، والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب الينا من قريش . وقد مات محمد وبقي طليحة فطابقوه على رأيه » .

وهناك قبائل لم تخضع سياسياً ولا دينياً للرسول ، مثل بعض القبائل في اليمامة . فمسيلمة الكذاب طلب من الرسول في حياته أن يشاركه في النبوة وان يقتسم السلطة معه . فكتب إلى الرسول « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . أما بعد فاني اشركت في الأمر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ولكن قريشاً قوم يعتدون » . فاجابه الرسول « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »

وهذا عيينة بن حصن زعيم غطفان الذي أسر وجيء به إلى المدينة .

تذكر عنه الرواية « اخبرني من نظر الى عيينة بن حصن ، مجموعة يداه الى عنقه بحبل، ينخسه غلمان المدينة بالجريد يقولون : أي عدو الله ! أكفرت بعد إيمانك؟ فيقول والله ما كنت آمنت بالله قط » .

ولا ينبغي أن ننسى ان نجاح الرسول ، والوعي الذي كونته دعوته ، ووجود العصبية القبلية مسؤولة كثيراً عن ظهور الانبياء الكذابين مثل طليحة في بني أسد والاسود العنسي (الذي خرج في حياة الرسول) في اليمن ، وذي التاج لقيط بن مالك الازدي في عمان . وربما كان للناحية القبلية الأثر الأول في ظهورهم .

لم تكن حروب الردة إذن لأرجاع ناس اسلموا ثم تركوا الاسلام ، بل كانت حروبا سياسية دينية ، لاخضاع من خرج على سلطة المدينة ، ولاخضاع من لم يخضع وضمه إلى حضيرة الاسلام . ولا ننسى امتزاج الدين بالسياسة في الدعوة الاسلامية منذ بدئها . أنها حركة توحيد العرب . وقد اتم أبو بكر توحيد الجزيرة ، وعلى هذا يمكننا عد عمله متمما لعمل الرسول وقمة الوعي السياسي الداخلي أو الميل نحو التكتل الذي ظهر بشكل ضعيف مرتجف قبيل الاسلام .

وكان أول أثر لحروب الردة ، قبل توحيد الجزيرة ، توحيد صفوف المدينة ، بعد الخلافات والمنافسات التي خلفتها المعركة الانتخابية الاولى ، تلا ذلك توحيد الجزيرة .

وهكذا انتصر التيار الاسلامي انتصاره الاول بعد وفاة الرسول (ص) وتدفق هذا التيار المنتصر وسار خطوة جديدة نحو تكوين امبراطورية عربية اسلامية . وكانت ظروف العرب واتجاهات التيار الاسلامي مسؤولة عن ذلك .

ولتوضيح ذلك نلاحظ : —

ان الاسلام فرض الجهاد على المسلمين . ولما القى أبو بكر كلمته الافتتاحية جعل الجهاد من أسس تكوين الامة الجديدة . قال « لا يدع أحد منكم الجهاد

في سبيل الله ، فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل » . وقد عدت حملة اسامة التي جهزها الرسول ليرسلها إلى جهة الشام أكبر دليل على رغبته في التوسع خارج الجزيرة . كما ان كتبه إلى ملوك البلدان المجاورة وامرائها كانت دليلا واضحاً على رغبته في نشر الاسلام خارج الجزيرة . فالاسلام وجه العرب ، وجعل توسيع رقعة الاسلام من أسس الكيان الجديد .

ثم أن حروب الردة واخضاع الجزيرة بالقوة ولدت فيها بعض الاحقاد على المدينة عامة وقريش خاصة . فبقي أثر العصبية القبلية ، وكان لابد من معالجته . ولا ننسى كذلك قوة الاستمرار . فحركة الغزو الاسلامي التي توجهت إلى داخل الجزيرة لايمكن ايقافها رأسا ولابد من توجيهها إلى الخارج . ثم ان الغزو كان من وسائل المعيشة للقبائل داخل الجزيرة ، فدخولها في كيان الأمة الاسلامية معناه إيقاف الغزو . ولما كانت موارد الجزيرة تقل عن حاجة سكانها فلابد من ايجاد مورد عيش جديد وهو توجيه الغزو بشكل منتظم إلى البلاد المجاورة .

وللعامل الاقتصادي أهمية تذكر . فجدب الجزيرة وروح التوثب التي نظمها الاسلام ، وغنى الهلال الخصيب كانت عوامل اغراء للمسلمين حتى في حياة الرسول .

يذكر الطبري أنه بعد معركة ذات السلاسل « قام خالد خطيباً في الناس يرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب وقال : ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب ؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولم يكن الا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والأقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه »[1]

ويروى انه جرى بين المغيرة بن شعبة ، رسول سعد بن أبي وقاص ، ورستم

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٩ (الحسينية)

قائد الفرس ، الحديث التالي : سأل رستم « ابعثوني ما جاء بكم من بلادكم فانا لا نرى لكم عدداً ولا عدة . » فقال المغيرة : « كنا قوما في شقاء وضلالة فبعث الله فينا نبياً فهدانا الله به ، ورزقنا على يديه . فكان فيما رزقنا حبة زعموا انها تنبت في هذه الارض . فلما أكلنا منها واطعمنا اهلينا قالوا لا صبر لنا حتى تنزلونا هذه البلاد فنأكل هذه الحبة » (١)

ويذكر ان الاقباط استهانوا برثاثة العرب بعد فتح حصن بابليون سنة ٦٤١ م فدعا عمرو جماعة من كبارهم إلى وليمة ، فنحر جزورا وصنع لهم المرق بالماء والملح وجعل ذلك امامهم وقد جلس القبط إلى جانب العرب . فجعل العرب ينهشون اللحم نهشا حتى بشع القبط ذلك وعادوا دون ان يأكلوا . وفي اليوم الثاني أمر عمرو ان يؤتى بالوان الطعام في مصر وعمل وليمة عظيمة وجاء الاقباط فجلسوا إلى ذلك الطعام واصابوا منه . فلما فرغوا قال عمرو للقبط : « قد علمت انكم ترون في انفسكم امراً تريدون به الخروج ، فخشيت ان تهلكوا . فأريتكم كيف كان العرب في بلادهم وطعامهم من لحم الجزور ، ثم حالهم بعد ذلك في اوضكم وقد رأوا ما فيها من الوان الطعام الذي رأيتم . فهل تظنون انهم يسلمون هذا البلد ويعودون إلى ما كانوا فيه ! انهم يسلمون قبل ذلك حياتهم ويقاتلونكم أشد القتال » (٢) ومع ان هذه مناورة واضحة من عمرو فان فيها من الدلالة ما يكفي لغرضنا .

سقنا هذه الأمثلة لنبين انه كان للعامل الاقتصادي أثر في تدفق العرب ، ولكننا نعد التوجيه والتنظيم الاسلامي قاعدة التوسع العربي .

ولن نمر دون الاشارة إلى نظرة ونكلر وكيتاني (وقد اخذ بها بيكر) وهي أن توسع العرب لم يكن حركة مفاجئة ، إذ أن الهجرة إلى الهلال الخصيب

---

(١) الخراج لأبي يوسف (بولاق) ص ١٦ (٢) بتلر فتح العرب لمصر ص ٢٤٢ .

كانت مستمرة ولكنها بطيئة . وقد كانت هناك هجرات سلمية كثيرة خلال فترة طويلة من الجزيرة إلى الاراضي الخصبة . وهذه الهجرات خلقت للبيزنطيين والساسانيين مشكلات كثيرة على الحدود . فحاولت كل من الدولتين تنظيم حركة الهجرة بشكل يجعلها مفيدة لها . فكونت امارتين أو مملكتين للمناذرة والغساسنة لتقف في وجه القبائل النازحة . ولكن قصر نظر الدولتين جعلهما يهملان شأنهما في أواخر القرن السادس للميلاد بل يضعفانهما فخرق السد وفتح الباب امام القبائل النازحة . اما الاسلام فلم يأت بشيء جديد لهجرة العرب ، بل أتى بهدف جديد وبتنظيم جديد ، فكان بذلك سبباً في نجاح القوات الاسلامية العظيم في الفتح . فالفتوحات العربية هي آخر هجرة سامية كبيرة ناتجة عن تدهور الاحوال الاقتصادية في الجزيرة . ولا صحة للفكرة الشائعة من ان الفتوحات الاسلامية معناها نشر الاسلام ، فالذي نشر لم يكن الدين الاسلامي بل سيادته السياسية . يؤيد ذلك عدم وجود حركة تبشيرية خلال الفتوحات وبعدها .

ونحن نرى في أسس هذه النظرية تأييداً لرأينا . فالصراع بين البادية والحاضرة أو زحف البادية على الحاضرة قديم ، والموجة العربية ، ان جاز هذا التعبير ، بدأت قبل الفتح بما يزيد عن قرنين . ولكنها كانت ضعيفة محدودة ولا هدف لها . فالاسلام وحد العرب ، وأعطاهم رسالة عالية ورمى بهم البلاد المجاورة لا الهلال الخصيب وحده ولا يتمثل التيار الاسلامي في نشر الدين الاسلامي بالسيف ، بل يتمثل في نشر سيادة الاسلام ، وتخيير الناس بين قبول الدين ودفع الجزية والخضوع . فالخلاف – بيننا وبين أصحاب النظرية السابقة هي في انهم يغمرون الجوهر بالحواشي فيؤكدون ما هو ثانوي ، ويقللون من شأن الأسس كما يتضح .

وإلى الاتجاه الأسلامي يعود انتصار العرب بالدرجة الاولى . فالقوة الدافعة

في الدين الجديد وفتوة الشعب العربي وتحفزه واجتماع كلمته كانت سر تفوقه . اما الضعف الداخلي في الدولتين البيزنطية والساسانية — من انقسام ديني ، وتباين اجتماعي ، وارهاق في الضرائب ، وانهاك نتيجة الحروب الطويلة ، فذلك عامل ساعد على سرعة تغلب العرب ، ولكن تأثيره سلبي ، في حين ان الناحية الايجابية تتعلق بالعرب انفسهم .

فالتوسع العربي يمثل قوة التيار الأسلامي واستعلاءه على التيار القبلي بتنظيمه وتوجيهه في صالح الاسلام وصالح حملة لوائه العرب .

وبتوسع العرب خارج الجزيرة اتصل الشعب العربي باوضاع جديدة وباتجاهات خطرة على كيانه ، اخطرها اتجاه امتزاج ، فيه رد فعل الديانات الفارسية التي عزها الاسلام ، ورد فعل القومية الفارسية التي محا دولتها . وكان هذا من اخطر التيارات في التأريخ الاسلامي وابعدها أثراً كما سنرى .

يضاف إلى ذلك تيار اقتصادي تولد عن تسرب الاموال إلى العرب ، وتأثير ذلك في وضعهم المعاشي وفي علاقاتهم السياسية بعد ذلك .

ومع ان الخليفة الثاني أدرك خطر اتصال العرب في البلاد المفتوحة على كيانهم وعلى وضعهم ، وحاول ان يجمعهم في مراكز عسكرية خاصة بهم كالكوفة والبصرة والفسطاط ، ووضع نظاما يحفظ لهم جوهرهم الجديد وهو انهم أمة فاتحة مجاهدة لا تشتغل بمهنة غير الحرب والسياسة ، ومع ذلك لم تنجح تنظيماته في تحقيق ما اراد . فكان لذلك آثاره العاجلة والآجلة كما سنتبين فيما بعد .

أراني استرسلت في الملاحظات فلنرجع إلى المدينة لنرى كيف سارت التطورات فيها بتأثير التيارين الرئيسين .

وأول ما يسترعي انتباهنا مشكلة الخلافة فالاسلام يؤكد أمر الشورى ، ولكنه لم يضع هيكل نظام سياسي للعرب . لذا كان طبيعيا أن يستعين المسلمون

الأولون بتقاليدهم العربية السياسية آخذين المبادئ الاسلامية بعين الاعتبار .

ونلاحظ في اختيار الخليفة الاول أثر كل من الاتجاهين القبلي والاسلامي وتضافرهما الى حد واضح .

فقد انقسم المسلمون عند وفاة الرسول الى كتل على أساس قبلي وكان لكل كتلة مرشحها . وهذا ينسجم مع ما اعتادوه من أساليب سياسية قديمة في الحكم .

فالكتلة الاولى من الهاشميين وبعض الأمويين وطلحة والزبير تؤيد علياً وترى حقه طبيعياً في الرئاسة .. والكتلة الثانية مالت الى أبي بكر وكانت نشيطة تشمل اكثر المهاجرين ، ويظهر انها تفاهمت قبل اجتماع الانصار في السقيفة [1] .

والكتلة الثالثة وتشمل اكثر الانصار وهي التي اجتمعت في السقيفة تؤيد ترشيح سعد بن عبادة سيد الخزرج ، ولكنها كانت تضعفها الحزازات وقلة الثقة بين الأوس والخزرج وشعورها بان النبي من قريش .

وقد اجتمعت اتجاهات قبلية واسلامية أدت الى انتخاب أبي بكر . فمن الناحية الاسلامية نرى النقاط التالية :ـ

صلى أبو بكر بالمسلمين بتفويض من الرسول في مرضه الأخير ، فعدت امامة الصلاة ترشيحاً لقيادة الامة « والصلاة أفضل دين المسلمين » وهناك صلة أبي بكر القوية بالرسول وصحبته له دائماً فهو « ثاني اثنين إذ هما في الغار » كما ان انتخابه لرئاسة المسلمين الذين ينتمون لقبائل مختلفة إنما هي فكرة اسلامية تنافي الفكرة القبلية التي تفكر باختيار رئيس لقبيلة واحدة .

ومن الناحية القبلية نرى التكتل الذي أشرنا اليه . ثم التأكيد عند البيعة

---

(١) هـذا التفاهم بين اكثر المهاجرين قبل السقيفة هو الذي يوضح الموقف الذي اتخذه ابو بكر وعمر وابو عبيدة في السقيفة ، اذ تكلموا باسم المهاجرين يردان دعوة الانصار . انظر الطبري ج ٣ ص ٢٠١ حيث يصرح عمر بذلك . اما خيال لامنس عن وجود مؤامرة ثلاثية ، فليس له سند من المصادر بل انها تنقضه .

لأبي بكر على سنه وخبرته وخدمته ، من التقاليد العربية التي لم يبدلها الاسلام . ثم ان التقاليد القبلية لا تقر مبدأ الوراثة باي صورة ، وان كانت تعترف بسيادة فخذ او قبيلة . لذا نرى المهاجرين يحتجون على الانصار بانهم عشيرة الرسول ، ولكنهم لم ينتخبوا ابن عمه . ثم ان طريقة البيعة بهز الأيدي تقليد عربي معروف قبل الاسلام .

وتظافرت في اختيار عمر تقاليد قبلية واسلامية . فعمر بن الخطاب كان اكثر الصحابة نفوذاً في خلافة أبي بكر . وقد رشح بعد استشارة الصحابة وتأييد بعضهم له . وتمت خلافته بمبايعتهم . وهذان الامران يتمشيان هما والتقاليد السياسية الموروثة من قبل الاسلام . ومن ناحية ثانية ، كان لخدمة عمر في الاسلام أهميتها . كما انه ليس من فخذ بارز في قريش بل اختير لمؤهلاته وقابلياته ، وهذه ناحية اسلامية لا تأتلف هي والتقاليد القبيلية .

ووضع عمر بن الخطاب الشورى لحل مشكلة الخلافة . ولم تكن تلك فكرة آنية ، فان المصادر تدل على انه فكر طويلا ، وانه تردد في تعيين خلف له . وتردد في عدم تعيين خلف ، وأخيراً بعد ان طغى استقر على الشورى بعد الحاح من الصحابة .

وكان لتقرير مبدأ الشورى أسبابه وظروفه الهامة . فقد اختار عمر الستة لأنه وجدهم « رؤساء الناس وقادتهم » كما قال ولا تخرج الخلافة عن أحدهم : فعلي سيد بني هاشم ، وعثمان شيخ بني امية ، وطلحة سيد بني تميم ، والزبير زعيم بني أسد ، وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف رئيسا بني زهرة ، وكل له أنصاره ومؤيدوه .

ولم يكن عمر ليطمئن اطمئناناً تاما الى أي من الستة فيتحمل مسؤولية العهد اليه ، بل كان له بعض ملاحظات على صفات كل منهم ، بعضها ثانوي وبعضها

مهم نسبيا [1] . وكان يعرف طموح كل من هؤلاء الستة ، ويدرك انه يصعب أن يقبلوا تقديم أحدهم حتى حذرهم من الاختلاف في الشورى لما في ذلك من خطر على كيان الأمة واتخذ تدابير فعالة لمنع الاختلاف . وأخيراً اكد عمر ناحية اسلامية وهي ان الرسول « توفي وهو عنهم راض » .

ومع ملاحظة أثر الظروف في هذا الحل ، فاننا نتساءل عن مصدر فكرة الشورى . فمن المحتمل ان لها جذوراً في التقاليد السياسية العربية ، فلها شبيه في مجلس متنفذي القبيلة الذين يختارون الشيخ وربما كانت مأخوذة من فكرة الملأ المكي ، وهو مجلس المتنفذين من أهل مكة ، ذلك المجلس الذي نظمه قصي لادارة شؤون قريش وبنى له دار الندوة ، والذي كان رئيسه أميز من فيه . وهو مع ذلك رئيس مقيد برأي المجلس [2] .

وعقد مجلس الشورى عدة اجتماعات وطالت المناقشات حتى اتفق على ان عبدالرحمن أحدهم بعد ان تنازل عن حقه وقام عبدالرحمن باستشارات كثيرة ، ثم اختار عثمان .

وقد اجتمعت أسباب عديدة ، بعضها قبيلي وبعضها اسلامي في اختيار عثمان . ولن أقدم رأيا شخصيا في الموضوع بل اكتفي بذكر الاسباب التي يوحي بها المعاصرون .

أن المصادر تؤكد ان عبدالرحمن جعل السبر على سنة الخليفتين الاولين ،

---

(١) كان يخشى من علي صلابته وان « فيه دعابة » ومن عثمان ميله لأهله ، ومن الزبير أنه « مؤمن الرضا كافر الغضب شحيح » ومن عبد الرحمن ضعفه ومن طلحة كبرياءه وزهوه ، ومن سعد أنه رجل حرب لا يصلح للسياسة . أنظر ابن قتيبة الامامة والسياسة ج ١ ص ٤١ الماوردي ، الأحكام السلطانية ص ١٠ ، الطبري ج ٥ ص ٣٢ ، انساب الأشراف للبلاذري ج ٥ ص ١٧ .

(٢) انظر بحث حميد الله الحيدر آبادي في مجلة Islamic Culture مجلد ١٢ سنة ١٩٣٨ بعنوان Mamidullah = the city state of Mecca p. 262 off .

إضافة الى اتباع كلام الله وسنة الرسول ، أساس الترشيح ، وان عليا لم يعط جوابا ايجابيا قاطعا بل وعد بان يجتهد في اتباع سنن سلفيه . اما عثمان فقد تعهد بذلك دون تحفظ . وتخبرنا المصادر أيضا ان عبدالرحمن استشار اشراف الناس وامراء الاجناد ، وحاول معرفة رأي عامة الناس حتى «ضعاف الناس ورعاعهم» فوجدهم يشيرون عليه بعثمان. وهذا يوحي بدعاية واسعة نظمها بنوأمية لمرشحهم. وقد كان بنو أمية يسعون لاستعادة نفوذهم بالتدريج منذ فتح مكة ، ونجحوا في ذلك نجاحا كبيراً خلال فترة الخليفتين الاولين . وكان لشيخوخة عثمان أثر ملموس في تقديمه . ويعطي الامام علي نفسه سببين آخرين . فهو يتهم عبدالرحمن بالعصبية لعثمان لانه صهره . وهو يعتقد ان قريشا تعرف نفوذ بني هاشم واحترام المسلمين لمكانة آل البيت ، وتخشى أن تبقى الخلافة فيهم ان اختير أحدهم ، في حين انها تبقى متداولة بين افخاذ قريش ما دامت في غيرهم .

ومن هذا نلاحظ ان قوة الاتجاهات القبلية التي في تزايد ، وان التقليد السياسي الذي في هذا الاتجاه كان لها الأثر الاول في ترشيح عثمان .

وفي خلافة عثمان حصلت الفتنة الاولى في تأريخ العرب المسلمين . وانها - نظراً لخطورتها ولما تركته من أثر في تطور حياتهم ، - تستحق دراسة خاصة .

لقد اتجه نشاط العرب بعد حروب الردة الى التوسع الخارجي وشغلتهم موجة الفتوحات وما صحبها من مجد وتضحيات وغنائم ، حتى إذا مرت السنوات الست الاولى من خلافة عثمان ، وصلت تلك الموجة نهايتها الطبيعية فوقفت عند الجبال في الشمال ، وسهوب آسيا في الشرق وفي شمالي افريقيا في الغرب . وكانت السنوات الست الأخيرة من عصر عثمان سنوات هدوء نسبي ، اتجهت فيها الافكار الى الوضع الداخلي .

ويعلل المؤرخون الشكوى من عثمان ويحملونه مسؤولية ما حصل فيرمونه

بالضعف السياسي والاداري، ويؤاخذونه على تصرفات جعلوها سبب الفتنة، وهي تقريبه بني أميـة وإثراؤه وإثراء أقربائه على حساب مال المسلمين ، واحراقه المصاحف ، واسقاطه خاتم النبي في بئر أريس وعدم اكتراثه بنصائح المخلصين والأنقياء كأبي ذر الغفاري . إن بعض هذه الاسباب لها أهميتها ومع ذلك لم تكن بحد ذاتها وبشكلها الظاهر عوامل أساسية ، وان كان لها أهمية فذلك فيما تحمله من معنى وملابسات .

ويكفي هنا ان أبين بعض الملاحظات ، هادفاً إلى توجيه بحث المشكل توجيها يؤدي بنا إلى فهم الحالة فهما أدق واقرب الى الواقع . ولن يكون ذلك بدون مراعاة الاتجاهات والتطورات العامة . وعلينا ان نلاحظ ان الهزات الاجتماعيـة لا تنشأ حين انفجارها وانما يسبقها دور الاوليات التي تجمع قوة في الظروف المناسبة حتى تنفجر في دور قد يكون بعيداً عن تكوينها . فعوامل حروب الردة لم تكن من تكوين أبي بكر ، وسقوط الدولة الأموية لم يكن ناتجا عن ضعف مروان الثاني ، وقيام الدولة العباسية لم يكن بجهد أبي مسلم أو بجهد أبي العباس ولا يقول ذلك إلا من اختلطت عنده ظواهر الاحداث باصول التطور ومن عد العرض جوهراً . فالظروف والتطورات احكامها وتأثيراتها ، التي قد تتجاوز كل جهد يبذله الفرد وتكتسح كل محاولة لايقافها . وبعد ذلك قد يكون في تصرفات الافراد ما يساعد على التطور ، وعبقريتهم تتضح في مدى ادراكهم للاوضاع وفي القدرة على التوجيه أو المعالجة .

ولنرجع لمشكلة الفتنة ، فاني أراها ناتجة بالدرجة الأولى عن أوضاع ورثها عثمان ولم تكن من صنع يده ، ولكن عثمان لم يستطع تغييرها ، ولا ينبغي أن ننسى أنه ألزم نفسه قبل البيعة بالسير على سياسة اسلافه ، وبويع على هذا . لقد ورث عثمان الاتجاهات القبليـة الصاخبة في المجتمع ، وورث الاتجاه الاسلامي وصراعه مع

الاتجاه القبلي ، نعم ، ورث هذين التيارين الرئيسين اللذين كانا المحرك الأول للتطور . كما ورث تأثيرات الفتوحات ، ولا سيما النظام المالي الذي استندت اليه الامبراطورية العربية . وان نحن أمعنا النظر رأينا في تلك الاتجاهات مكمن الفتنة واصل الانفجار الذي أودى بعثمان وبوحدة الأمة العربية .

انتقد عثمان لعصبيته لاقربائه وتوليتهم الامصار وتنحية بعض كبار الصحابة عنها . ففي الشام كان معاوية وهو أموي . وعزل أبا موسى الاشعري عن البصرة وسعد بن أبي وقاص عن الكوفة . وولى عبدالله بن عامر الاموي على البصرة والوليد بن عقبة على الكوفة . ثم عزله وولى سعيد بن العاص . وقبل انسحاب عمرو بن العاص من مصر وولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح . ومعنى ذلك تنفذ الامويين وتحقيق امانيهم في السلطة . ولذا امكن عد خلافة عثمان بداية الحكم الاموي . وهنا نرجع قليلا إلى الوراء . فبنو أمية كانوا اصحاب النفوذ عند ظهور الاسلام ، واكثر مالا وقوة من غيرهم في قريش ، وقادوا المقاومة للحركة الاسلامية وتأكد نفوذهم بعد معركة بدر لمقتل جل زعماء بني مخزوم الذين كانوا ينافسونهم في السلطة . وبعد عام الفتح اشتغل الامويون بجد لاسترجاع نفوذهم ، ونجحوا كثيراً في خلافة أبي بكر وعمر . قاموا بدور أساسي في خدمة شيخهم عثمان وفي وصوله الخلافة . فقد كانوا اقوى كتلة في المدينة عند مجيء عثمان ، ومن المنتظر ان يقوموا بالدور الرئيس في خلافته . ولم يرتح الصحابة لتنفذ هؤلاء الحديثين في الاسلام ، والذين قاوموه عند ظهوره أمر مقاومة.

ولعثمان خطاب يرد فيه على تهجم أهل الامصار عليه ، القاه امام الصحابة في المسجد : « وقالوا : استعملت الاحداث ، ولم استعمل الا مجتمعا محتملا مرضيا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم . قالوا : اللهم نعم ، يعيبون للناس ما لا يفسرون ... وقالوا إني أحب أهل بيتي واعطيهم ؛ فاما حبي فانه لم يمل معهم على جور بل احمل

المقوق عليهم . واما اعطاؤهم فاني انما اعطيهم من مالي ولا استحل اموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس » (الطبري)

ويرى دلاّفيدا ان عثمان أراد حفظ الوحدة العامة وتحقيق الاشراف الدقيق ، فسار سيراً لحل سياسة عمر ، ولكنه استبدل بقوة عمر وشدته تقريب اقربائه وتوليتهم ليضبط بهم الامور . ولكن القضية انعكست بتنفذهم الزائد . وهذا رأي لم أجد في التعليقات المعاصرة ما يؤيده .

أردت فيما عرضت أن أبين ان استعلاء نفوذ بني أمية كان نتيجة مطردة للاوضاع قبل عثمان وعلينا أن نلاحظ أن مجلس الشورى انتهى بترشيح عثمان ولكنه لم يورث قناعة تامة . فكان من المنتظر أن يعتمد عثمان على بني أمية اعتماداً كبيراً . وبنتيجة ذلك انقسمت قريش على نفسها مع العلم بان هذا الانقسام له جذوره التي غمرتها موجة الحروب والفتوحات ولكن مجلس الشورى وتوقف الحرب كانا مساعدين على توسيع الشقة .

والأهم من هذا هو شكوى القبائل من نفوذ قريش . فالثورة جاءت من الخارج ولم يخلقها انقسام قريش بل كان هذا الانقسام عاملا مساعداً . فالقبائل بنزعتها البدوية التي تكره الحكم المركزي لم ترض يوما عن سيادة قريش . استمع إلى رد رجل من عبد القيس على الزبير في البصرة حين حاول اقناع أهلها بالثورة على عليّ « يا معشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول الله (ص) فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس في الاسلام كما دخلتم فلما توفي رسول الله (ص) بايعتم رجلا منكم ، والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك ، فرضينا واتبعناكم ، فجعل الله عز وجل في امارته بركة . ثم مات رضي الله عنه واستخلف عليكم رجلا منكم فلم تشاورونا في ذلك فرضينا وسلمنا ، فلما توفي الامير جعل الأمر إلى ستة نفر ، فاخترتم عثمان وبايعتموه من غير مشورة

منا ... »[١] . فالقبائل دخلت الاسلام كما دخلت قريش وهاجرت لاعلاء رايته ولكن قريشا استأثرت بالخلافة وقادت وتزعمت . ومما زاد هذا التذمر حدة أن عامة القوات الفاتحة كانت من القبائل فأكد هذا شعورها بأنها مغبونة . فلما انقسمت قريش على نفسها انقساما ظاهرا وجدت الفرصة سانحة للتدخل .

وظهرت نزعة اقليمية لعلها تطور للنزعة القبلية في الامصار ، يصحبها عدم ارتياح الاقاليم لسلطة المدينة وسيادتها ، إذ ان الموارد كانت ترسل من الامصار الى بيت المال في المدينة . لقد كان لكل قبيلة مراعيها وحماها الذي تدافع عنه ، فحلت الامصار التي تسكنها القبائل محل الحمى والمراعي التي عليها تعتمد في معيشتها وترى حقها الطبيعي في أن تتصرف بها . ولدينا أمثلة لذلك . قال سعيد بن العاص في الكوفة « السواد بستان قريش » فعلت الصيحة « أتجعل ما افاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستانا لك ولقومك ؟ »[٢] ثم استمع الى صيحة الشاميين في صفين : « يا أهل العراق ، من لثغور العراق بعد أهل العراق ، ومن لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ » وتظهر قوة التيار الاقليمي القبلي في ذهاب علي الى الكوفة وتركه المدينة بعد ثورة طلحة والزبير ومكثه هناك .

ثم انظر الى مشكلة احراق المصاحف . ونبين لك مبدئيا أن المصاحف لم تحرق كلها والظاهر ان مصحف ابن مسعود نفسه لم يحرق . فالكتابة كانت بدون تنقيط وبدون تشكيل . وإذا أضفنا إلى ذلك اختلاف اللهجات العربية أدركنا مجال الاختلاف بين القراء في القراءة ، وهذا أدى الى بعض الاختلاف كما انه اكسب القراء نفوذاً محليا قويا ، وتمثلت النزعة الاقليمية في تأييد كل مصر لقارئه وفي هذا تأييد للكيان المحلي للامصار ، يحد من سلطة الدولة ويضعف الاتجاه نحو

---

(١) الطبري ج ٣ ص ١٨٦ (الاستقامة)

(٢) المسعودي ج ٢ ص ٢٢٥

المركزية كما بدأه عمر وسار عليه عثمان . فكان جمع عثمان للقرآن خطوة دينية سياسية كبيرة يقتضيها حفظ الدين وتحقيق الوحدة . ومعنى جمع القرآن من ناحية ثانية الحد من نفوذ القرآن والحد من الاتجاه اللامركزي ، وهذا هو سر الضجة على عثمان . وخير تأييد لذلك ان أحداً لم يتهم الخليفة بالتحريف . فجمع القرآن وكان ما ولد من ضجيج هو أروع مثل للصدام بين الاتجاه القبلي والاتجاه الاسلامي في سياسة الخليفة .

ولقد لمحنا الى أثر الفتوحات في احداث الفتنة . ويمكن أن يكون ذلك من ناحيتين : اولاهما ناحيـة الاختلاط بالشعوب الاخرى والصدام بين العقائد والسيادة الاسلامية ، وبين العقائد المحلية والنزعات القومية المحلية . ومع ان هذه ناحية لها أهميتها أميل الى ان الزمن كان أقصر من أن يسمح باعطاء هذه الناحية تلك الاهمية العامة وان وجد شيء في هذا الاتجاه فهو فردي .

ولكن المهم هو التأثيرات الاقتصادية . فقد حاول الرسول في دعوته مكافحة التباين الاقتصادي ، وحث على التعاون الاجتماعي والرفق ، بأن منع الربا وما صحبه من مآس اجتماعية ومالية في المجتمع المكي ، وفرض الزكاة ، ومنع كنز الذهب والفضة ومنع الاحتكار ووجه سياسته المالية نحو تحسين احوال الفقراء والضعفاء بالدرجة الاولى . وفي خلافة أبي بكر بدأ فرض الاعطيات ، فرأى أبو بكر المساواة بين المسلمين في العطاء فلم يفضل « أهل السوابق والقدم والفضل » قائلا « إنما ذلك ثوابه على الله جل ثناؤه وهذا معاش فالاسوة فيه خير من الاثرة » (١) ولكن عمر بن الخطاب اجتهد برأي آخر بان ميز في العطاء بين المسلمين بحسب القرابة من الرسول والسوابق والقدم في الاسلام ، والغناء للاسلام والحاجة . فاعطى من شهد بدراً ٥٠٠٠ درهم في العام ولمن أسلم بعـد بدر حتى

(١) ابو يوسف ص ٢٤ (الخراج)

الحديبية ٤٠٠٠ في العام ، ولمن أسلم بعد الحديبية حتى نهاية حروب الردة ٣٠٠٠ في العام ، ولمن أسلم بعد الردة حتى القادسية واليرموك ٢٠٠٠ في العام ولمن بعد ذلك الف درهم في العام . ومعنى هـذا النظام عملياً تمييز المهاجرين والانصار وتفضيلهم في العطاء ، ووضع عامة العرب في المرحلتين الاخيرتين ، وكان ذلك مما يساعد على إحداث التباين الاقتصادي وعلى نوع من التذمر . وقد اتبع عثمان - كذلك - هذا النظام .

ولما وضع عمر بن الخطاب نظامه المالي رفض تقسيم الاراضي المفتوحة بين المقاتلة بل عد الارض ملكا مشتركا بين المسلمين يجبى وارده الى بيت المال ، وخصص للمقاتلة عطاء ورزقاً . وقد دفعته الى ذلك عوامل مهمة منها انه أراد أن يجعل العرب امة مجاهدة عسكرية وأراد ابعادهم عن الزراعة . واراد تكوين موارد مالية ثابتة ليسد منها حاجات الامة . وخاف إن هو قسم الارض بين الفاتحين ألاّ يبقى لمن يأتي بعدهم شيء . ثم خاف انتشارهم في الارض وضياعهم بين جماهير الامم المغلوبة لضآلة عددهم بالنسبة اليها ، وخاف أن يختلف المسلمون بينهم في الاراضي والمياه . هذا اضافة الى رغبته في ربط الاجزاء بالمركز وتكوين امبراطورية موحدة .

وهذه سياسة حكيمة بنائية ، ولكن معناها كان قصر الجنـد على العطاء ، وهذا مما لم يرتاحوا له لانهم يرون ان الارض لهم وان واردها حقهم الطبيعي بحكم الفتح ولهم مثل في تقسيم الرسول لاراضي خيبر بين المقاتلة بعد فتحها . ولكن قوة الخليفة الثاني ووفرة الغنائم خلال فترة الفتوحات غمرتا هذه الشكوى .

واتبع عثمان نظام عمر . فلما توقفت الفتوحات زال وارد الغنائم ونظر الناس في الامصار الى الوارد فوجدوه يذهب الى المدينة فلا يصيبهم منه إلا العطاء . عندئذ قوي التذمر ، فهم يرون الوارد مال المسلمين ، وأنه يجب توزيع

وارد كل مصر على من فيه من العرب ، بينما الخليفة (الحكومة) بيده مال الله (أي مال الدولة) فضجوا بالشكوى على عثمان وعماله . ولتوضيح ذلك نذكر الخبر الآتي . قال أحدهم يخاطب أبا ذر « يا أبا ذر ، الا تعجب من معاوية (أمير الشام) يقول ان المال مال الله . الا ان كل شيء لله ، كأنه يريد ان يحتجنه دون المسلمين ويأخذه دونهم » فجاء أبو ذر إلى معاوية وقال له « ما يدعوك ان تسمي مال المسلمين مال الله ، قال (معاوية)، يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ؟ والمال مال الله والأمر لله ، قال (أبوذر) ، فلا تقله . قال (معاوية) فاني لا اقول انه ليس لله ، ولكن سأقول مال المسلمين » (الطبري)

ومما زاد في حدة التذمر تعوّد رجال القبائل كثرة الانفاق وشيئاً من الترف . لكثرة ما حصلوا عليه من غنائم ، حتى صارت الاعرابية تألف لبس الحرير . فصعب عليهم تحمل الوضع الجديد .

ثم ان قريشا قبيلة تجارية تعرف استغلال الاموال وتنميتها ، فعرفت كيف تستفيد من ارباحها من الفتوحات، في حين ان عامة القبائل بذّروا ما اجتمع لديهم ولم يستفيدوا من واردهم . فساعد ذلك على حصول تباين اقتصادي كبير بين قريش والقبائل الاخرى . ويكفي ان نشير إلى ثروات بعض الصحابة فالزبير خلف خمسين الف دينار والف أمة والف فرس عدا الدور . وكانت غلة طلحة بن عبيد الله التيمي من العراق كل يوم الف دينار . وكان على ربط عبدالرحمن بن عوف مائة فرس والف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله ٨٤٠٠٠ دينار .

ولما مات زيد بن ثابت خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الاموال والضياع وكانت قيمته مائة الف دينار . ومات يعلى بن منيه وخلف ٥٠٠,٠٠٠ دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك من

التركة قيمتها مائة الف دينار . ويعلق المسعودي على هذه الاخبار بقوله « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه ، فيمن تملك من الاموال في ايامه ، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة »(١).

ومما زاد في هذا التباين ان أغلب الولاة كانوا من قريش فجمعوا الاموال الوفيرة حتى ضج بعض الناس بالشكوى منهم منذ زمن عمر . فاستمع الى شكوى شاعر من عمال الاهواز :

فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى يفيضون مال الله في الادم الوفر
نؤوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا فانى لهم وفر ولسنا اولي وفر
إذا التاجر الداري جاء بفأرة من المسك راحت في مفارقهم تجري

هكذا تصرف الولاة في زمن عمر وهو من هو في قوته . فمن الطبيعي أن يزداد جمعهم للمال في زمن عثمان المتسامح اللين . حتى ظهرت البلاد وكأنها مرعى للولاة والمتنفذين .

ولقد انتقد عثمان بانه اقطع الاراضي لاقربائه ولجماعة من المهاجرين . وكان من حق الخليفة أن يقطع من اراضي الصوافي التي تعد ملك الخزينة . وليست ملك المسلمين ، ومن حق الخليفة أن يعطي منها لمن يشاء . وقد أقطع عمر منها لقليل من الصحابة . وسار عثمان في ذلك على خطة عمر ولكنه فاته في مقدار ما أقطع . إلا أنه رد على من انتقده في ذلك قائلا « وقالوا : اعطيت الارض رجالا ، وان هذه الارضين شاركهم فيها المهاجرون والانصار أيام فتحت ، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو اسوة أهله ، ومن رجع الى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له . فنظرت في الذي يصيبهم مما افاء الله عليهم فبعته لهم بامرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب ، فنقلت اليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني »(٢). وهذا النقد

(١) المسعودي ج ١ ص ٢٢١ – ٢٢٢
(٢) الطبري ج ٣ ص ٣٨٥ (الاستقامة)

والرد يبينان بوضوح تذمر القبائل من التباين الاقتصادي وقدرة قريش على تنمية مواردها .

ولم تكن احتجاجات أبي ذر الغفاري إلا تجاهلا للتطور وحملة على تفشي الترف وتبدل معيشة الناس ، ولكن اللوم وجه الى الخليفة في حين ان الاوضاع العامة تبدلت وذهبت القلة السائدة في بدء الحركة الاسلامية .

ومن هـذا نلاحظ شكوى من النظام المالي الذي وضع زمن عمر ، وتذمرا من الفوارق المادية بين قريش وغيرها ، وان الاختلاف مع قريش كان قبليًا في أساسه إلا أن التباين المالي والتطور الاجتماعي زاداه قوة وتأزماً .

والخلاصة ان الثورة على عثمان تمثل ثورة القبائل على قريش بالدرجة الاولى ، وهي انتصار واضح للتيار القبلي على التيار الاسلامي . وقد ذهب عثمان ضحية ظروف لم تكن من صنعه وإنما هي نتيجة تطور الأمة الاسلامية وتبدل ظروفها .

ثم انتخب علي بعد مقتل عثمان ، وهو يمثل التيار الاسلامي في اتجاهاته وميوله . وإذا حللنا ظروف انتخابه نلاحظ ان نكبة الامويين في الفتنة تركت الكلمة في المدينة للانصار والهاشميين ، ولحد ما لرجال القبائل الذين وطئوا المدينة . وقد أيد الانصار علياً ، وكذا الهاشميون . ولقد اعتادت القبائل أن ترى الخليفة من قريش ولم يكن في قريش من يتمتع بمثل نفوذ علي ، او بمثل منزلته الاجتماعية لسابقة مصاهرته وعلمه وفضله ، ولأنه أميز الصحابة الموجودين . ولكن يظهر لي ان نفوذ علي وتأييد الانصار والهاشميين له كانا العامل الفصل في انتخابه في تلك الظروف المضطربة .

ولقد جاء الامام علي في فترة مرهقة مرتبكة ، في فترة انقسام قريش وتجزؤ الامصار وخرق حرمة المدينة بدخول رجال القبائل المتذمرين الذين ضربوا حرمة الخلافة بقتلهم الخليفة عثمان .

ولم تنته الفتنة بانتخاب علي ، بل تلاحقت احداثها . ولن احاول هنا مناقشة الحوادث الفردية ، او تقدير الكفايات ، لأن في ذلك ارباكا للتطور الاساسي . ولكني سانظر ما حصل في ضوء الظروف التي أدت الى إحداث الفتنة .

فالامام علي جاء ليسير وفق الاتجاه ، وكان تأييد الانصار له على أساس اسلامي . وكانت اول خطوة خطاها وهي عزل ولاة عثمان، اسلامية . ولا حاجة بي إلى رد الرأي السائد وهوأن علياً تسرع في عزل الولاة ، وان تصرفه بعيد عن الدهاء السياسي ، لأن هذا الرأي لا يستند الى اساس تاريخي . فانتخاب الخليفة يعتمد على المدينة لا على الامصار . ولم يكن للامصار أي رأي في ذلك . ولم نر أي خليفة ينتظر بيعة الامصار لتثبت ولايته . هذا اضافة الى أن تهدئة الخواطر وايقاف الهياج يتطلبان عزل الولاة . فالاوضاع السياسية تتطلب ما عمله علي ، وتقاليد الخلافة تؤيد ذلك .

ولكن عليا جاء في ظروف استعلاء الاتجاه القبلي وانتصاره كما بينا . وكان خروج معاوية للمطالبة بدم عثمان على اساس قبلي واضح ، لأن هذا واجب الدولة وحقها وليس حق الاقرباء . والتفاف الكثيرين حول معاوية إنما يدل على قوة الاتجاه القبلي ومواتاة الظروف .

سار علي على أساس اسلامي ، ومعنى ذلك معاكسة التيار القبلي الذي جاء بعد فورته ضربة قوية لاطماع الطامعين . وهذا الاتجاه يقتضي البقاء في المدينة معقل الاتجاه الاسلامي ، والتمسك بتقاليدها . ولكن قوة المدينة مضعضعة، كما ان نفوذ التيار القبلي كان قد امتد الى المدينة موقتاً بوجود رجال الامصار فيها . وبعد ثورة طلحة والزبير، سار علي الى العراق ، الى الكوفة لوجود الرجال والمال هناك ، كما ان رجال العراق تدفعهم النزعة الاقليمية والاتجاه القبلي أثروا فيه ليتخذ تلك الخطوة ، وبذلك تخلى عن مركز التيار الاسلامي .

وقد نخرج مركز علي في العراق . فهناك كانت التقاليد القبلية وما يصحبها من اتجاهات وحزازات قوية . فالكوفة قبلية حتى في تخطيطها وتوزيع سكانها ، وقبائلها محافظة على تقاليدها البدوية ، ولم تختلط بالشعوب الاخرى ولم تتأثر بالتقاليد الحضرية بعد ، ولا تفهم فكرة الدولة الا بالمعنى الديني . ولكن الامام علياً سار في الكوفة وفق الاتجاهات الاسلامية ، وكان هذا لا يناسب الكوفيين الذين يفكرون بمصلحتهم وبمصلحة اقليمهم ويريدون الاستئثار . ولذلك نجد اتجاهه يصطدم باتجاههم في كل ازمة .

ففي معركة الجمل أفسدوا عليه استعداده للتفاهم مع خصومه ، بان اعتدوا بعد تمهيد المفاوضات دون علمه وسببوا تلك المعركة الدموية . وفي صفين دفعوه الى التحكيم كرهاً . بعد ان ملوا القتال ، وبعد ان أثرت فيهم الصيحة الاقليمية التي نادى بها أهل الشام . ثم فرضوا عليه أبا موسى الاشعري ليمثله ، ولم يكن من الموالين ، بل كان من المعتزلة ، وقد بين رأيه فيه بصراحة « انه ليس بثقة . قد فارقني وخذل الناس عني ، ثم هرب حتى أمنته بعد اشهر . »ولما اقترح عبدالله ابن عباس احتج الاشعث « لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعله رجلا من أهل اليمن إذا جعلوا رجلاً من مضر . » ولما حذر علي انخداع اليمن امام قريش (عمرو بن العاص) اجاب الاشعث « والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن أحب الينا من أن يكون (بعض) ما نحب في حكمها وهما مضريان » (صفين لنصر بن مزاحم المقري ص ٥٧٣) وأين هذه الصيحة القبلية من اتجاه علي الاسلامي .

وتظهر الفورة القبلية في خروج الخوارج . فقد كان عامة هؤلاء من رجال القبائل الذين انفصلوا بعد الاتفاق على صيغة التحكيم . ولم يكن الخوارج الاولون من القراء بل كانوا اعراباً . فهذا ابن عباس يروي لنا مناقشته لهم « قال هاتوا

ماقمتم علي من رسول الله (ص) والمهاجرين والانصار وعليهم نزل القرآن وليس فيهم أحد منكم »[1] وهو بهذا يدل دلالة واضحة على انهم اعراب. ولما رد ابن عباس جميع اعتراضاتهم « قال بعضهم لبعض لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم فان هـذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم « بل هم قوم خصمون »[2] وهو جواب يظهر سخط القبائل على قريش. ولما صاحوا صيحتهم المشهورة محتجين على التحكيم « لا حكم الا لله » قال الأمام علي « كلمة حق يراد بهـا باطل. نعم انه لا حكم الا لله ولـكن هؤلاء يقولون لا امرة الا لله، وانه لابد للناس من امير بر أو فاجر »[3].

وهكذا تظهر في حركة الخوارج النزعة القبلية في عـدم الخضوع للسلطان والحكم المركزي. ويظهر في حركتهم السخط على قريش والتذمر من انفرادها بالخلافة فانهم جعلوا أساس نظريتهم ان يكون الامام عربيا (اخيراً وسعوا الحق للموالي) من افضل الأمة، ولا يرون ضرورة للنسب القرشي. ويظهر انهم كانوا يتربصون بالامام الفرص حتى إذا ما قبل التحكيم قالوا « انه محا عن نفسه إمرة المؤمنين » فرأوا الخروج عليه، وقد أوحى لهم مقتل عثمان فكرة امكان الثورة على الامام.

في مثل هذه البيئة القبلية وفي وسط الاتجاهات القبلية اراد علي أن يسير على سياسة اسـلامية، ولذلك كان كمن يطرق في حديد بارد. أما معاوية فثار على اساس قبلي، وصور للشاميين ان علياً مالأ على قتل عثمان، وقام مطالباً بدمه ودعا للثأر وحاول ان يسترضي ويكرم، وبث الدعاية، وكان زواجه من ميسون بنت بحدل الكلبي (من كليب اليمانية) سنداً قبلياً قويا له. وسار على سياسة قبلية:

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزي ص ٩٢.
(٢) الـكامل للمبرد، طبعة رايت ص ٥٨٣.
(٣) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢١٠، الـكامل للمبرد ص ٥٥٥.

يسترضي الرؤساء ويقرب الشعراء ويستعمل المكر والدهاء .

فالصدام بين علي ومعاوية كان صداماً بين ممثلي تيارين ، ممثل التيار الاسلامي يسير على سياسة اسلامية في وسط قبلي فيصطدم بظروفه وبخصمه في آن واحد . وممثل التيار القبلي ، يسير على سياسة قبلية في وسط قبلي . فلا غرابة ان انتصر معاوية فالظروف والاوضاع كانت مواتية له .

وكان انتصار معاوية انتصاراً مطلقاً للتيار القبلي ، وقد جاء الامويون على هذا الاساس ، فكانت دولتهم نتيجة طبيعية لتطور الاوضاع العامة في عصر الراشدين بدون أن يحصل انقطاع في التطور التأريخي .

وقبل ان نناقش التطورات في العصر الاموي ، نشير إلى بعض التطورات التي نشأت عن ظروف عصر الراشدين . فقد كان للفتنة الاولى ولأحداثها أثر مهم في التكتلات السياسية في التأريخ العربي .

فمقتل الامام علي بلور اتجاه مؤيدي آل البيت وخلق الحزب العلوي السياسي الصحيح . وان ذكراه أوجدت الكثيرين ممن ايدوا بيته من أهل العراق دون ان يصبحوا شيعة حقاً ، وذلك لأنه يمثل زعامة العراقيين بين أهل الامصار .

وظهر قبل ذلك « العثمانية » أو المطالبون بدم عثمان ، وهم يرون انه قتل ظلماً . وقد صار هؤلاء بحكم الضرورة يؤيدون معاوية والشام على علي وانصاره العراقيين حتى صار بعض الناس يعرفهم بانهم « الجماعة الذين يقدمون بني امية على بني هاشم ، ويقولون الشام خير من العراق » .

وهناك الجماعة الذين اعتزلوا القتال ، ولم يشتركوا مع أي طرف ، مثل أسامة ابن زيد بن حارثة الذي اعتذر من الامام علي قائلاً « اعفني من الخروج معك في هذا الوجه فاني عاهدت الله ان لا اقاتل من يشهد ان لا آله الا الله » ومثل

سعد بن ابي وقاص الذي قال لعلي « اعطني سيفاً يفرق المسلم من الكافر » وهؤلاء هم المعتزلة السياسيون .

وظهر الخوارج بتأثير مشكلة التحكيم كما اوضحنا .

وبعد مرور هذه الحوادث ومجيء الامويين رجع الناس إلى مناقشة مشكلات الفتنة الاولى . فاخذ الخوارج يكفرون بعضهم، واجابهم آخرون بانهم لا يستطيعون تكفير من يقول لا اله الا الله ، والايمان بالله يمحو الكفر ، والحساب على الاعمال لله ، فاتخذ هؤلاء موقفاً سلبيا من المشكلات ومن الدولة الاموية فترة من الزمن في الاقل ويطلق عليهم اسم المرجئة .

وظهرت في اواخر ايام الدولة الاموية جماعة المعتزلة ، وربما كانت لها صلتها بالمعتزلة السياسية ، فهي تناقش حوادث الفتنة الاولى على اساس ديني ، وتقف موقفا وسطاء فلا تعد مرتكب الكبيرة كافراً كالخوارج ،ولا تراه مؤمنا كالمرجئة، بل تضعه في منزلة بين المنزلتين .

ولنعد إلى مجرى التطور العام . فالدولة الاموية جاءت نتيجة تفوق الاتجاه القبلي وانتصار مؤيديه ، فهي منبثقة من اوضاع العرب واستعدادهم . ولئن كان معاوية قد نجح في ان يصبح خليفة إن هذا يختلف عن انشاء اسرة حاكمة . إن رسوخ قدم الامويين وانشاء الدولة الاموية مظهر لمواتاة الظروف العامة لقيام مثل ذلك الحكم ،ودليل على ان الدولة الاموية ظاهرة طبيعية للتطور العام .

ومن الطبيعي أن تستمر الاتجاهات السابقة في تأثيرها وفي تصادمها — الاتجاه القبلي والاتجاه الاسلامي اضافة إلى التطورات الاقتصادية — ولكن اتجاها جديداً أخذ يقوى في الافق وتزداد تأثيراته حتى صار بمرور الزمن من اخطر الاتجاهات ، ذلك هو أثر الموالي أو العناصر غير العربية في المجتمع الاسلامي . ومما زاد في خطورة هذا الاتجاه انه خالط الاتجاه الاسلامي ، وانه

اتخذ طرقا مختلفة سياسية واقتصادية ودينية وفكرية كما سنرى . ولنلاحظ مبدئيا ان الامويين أدخلوا القوة في مشكلة الخلافة وانهم نقلوا مركز الحكم إلى الشام ، فكان لذلك أثر يذكر .

وان حللنا ظروف الامويين لاحظنا ان صلتهم بالعرب كانت لا تخلو من توتر احيانا . فقد عُدوا بنظر قسم من العرب مغتصبين للسلطان ، اخذوا الخلافة بالقوة لا بالانتخاب .

فالعلويون وانصارهم يرون الخلافة حقا مشروعا لآل علي ، وان الامويين اخذوها منهم قسراً . وقد تمسكوا بهذا الحق وعملوا سراً وعلنا لاسترجاعه . كثر المؤيدون لهم بعد استشهاد بعض ابطالهم ، وظلم بعض العمال الامويين لهم . وصاروا رمز المقاومة الشرعية للدولة الاموية ، وكان هذا مما فسح المجال لمختلف العناصر المتذمرة عربية وغير عربية لتنتظم تحت رايتهم .

واهل العراق رأوا في انتصار الامويين انتصاراً للشام عليهم ، ونقلاً لمركز الحكم من الكوفة إلى دمشق . وهذا الانتصار سلبهم قيادة الامة العربية وجردهم من امتيازات اجتماعية وسياسية كبيرة ، وصاروا يشعرون — بعد ان نقض الامويون عطاءهم — ان وارد السواد الغني يأكله أهل الشام غرما لهم وسلبا لحقهم . واخذوا يمجدون ايام الامام علي ، ويمجدون ذكراه ، وكانوا دائما يسعون لاسترجاع السلطة ولا ينسون أنه أول امام جعل مركزه وسطهم . ويلتبس علينا مبدئيا كما التبس على كثيرين في الماضي حقيقة شعورهم — أفشيعة علي وآله هم أم شيعة العراق وحماة كيانه ؟ . ولكننا في ملاحظتنا لمواقفهم الحاسية من الائمة العلويين — الحسين بن علي (ر) وزيد بن علي (ر) خاصة — ومن المنادين بحق آل علي كالمختار بن أبي عبيد الثقفي — ثم انفضاضهم السريع عنهم حين تقوم السيوف الاموية والاموال الاموية بدورها ، نشعر ان عامتهم كانوا

يفكرون بالعراق ، ولم يكن تأييدهم للعلويين في الغالب إلا وسيلة لذلك . وهذا جعلهم يثورون أحيانا تحت راية ليست علوية كما في ثورة ابن الاشعث الواسعة الخطيرة . وهذا لا ينفي وجود حزب علوي في العراق ، يخلص لآل علي ويسعى دوما لتأييدهم .

وهناك الخوارج الذين يمثلون النزعة البدوية بصراحتها وجرأتها ، فهم لا يعترفون بحق قريش في الخلافة ، ولا يقبلون بمبدإ الوراثة ، بل يدعون للانتخاب ، ولكنه انتخاب يختلف عما كان يسير عليه زمن الراشدين ، لأنهم يريدونه انتخابا عاما يشمل جميع العرب ويعطيهم الحق في الحكم نفسه . وعلينا ألا ننسى ان القبائل عامة كانت ترى في انتصار الامويين انتصاراً جديداً لقريش على بقية العرب . وفي هذا شيء من تلك النزعة التي ظهرت منذ حروب الردة .

وأهل الحجاز يرون ان الخلافة حق ابناء الصحابة ، وانها يجب أن تبقى في مهد الحركة الاسلامية وفي مقرها الاصلي : المدينة ، وان الخلافة يجب أن تكون في اولاد الصحابة الاولين لا في الامويين الذين أسلموا أخيراً . وتتمثل هذه النظرة في حركة ابن الزبير أقوى تمثيل .

ومما مر يتضح ان العرب الذين أيدوا الامويين ، وثبتوا دولتهم هم أهل الشام اولاً ثم القبائل المحالفة التي استفادت من الامويين . وقد انشق هؤلاء اخيراً على بعضهم بتأثير البيئة القبلية وبتأثيرات اسلامية فكان ذلك ايذانا بانهيار كيان الامويين .

انتصر الامويون ، وانتصرت التقاليد العربية الاولى في الاتجاه السياسي في الاقل فكان ذلك سببا لتطورات مهمة وتأثيرات ذات دور خطير . ويمكن أن نشير الى ما يأتي :

أ - قوة العصبية القبلية في الدولة ، بشكل يختلف عما كانت عليه قبل

الاسلام بنتيجة الاوضاع الجديدة ، فكان سبب ظهورها بقوة هو التنافس على النفوذ والسلطان واتخذت شكل نزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب او بين قيس ويمن . مع العلم ان المجموعات الداخلة تحت كل جهة لم تكن كلها تنتمي الى الشمال او الجنوب . وربما يخفي النزاع بين قيس ويمن في الشمال وراءه نزاعا بين القبائل الشامية المتوطنة قبل الفتح وجلها يمانية من كلب وقضاعة، والقبائل التي دخلت على أثر الفتوحات . وقد ظهر هذا النزاع بشكل علني بعد معركة مرج راهط التي كانت قمة مناورات حول الخلافة ، فكان الضحاك بن قيس الفهري زعيم قيس ينظر جنوبا الى ابن الزبير ويؤيده ، في حين ان اليمانية ولا سيما كلب وعلى رأسها حسان بن بحدل كانوا يؤيدون انسباءهم الامويين . وقد تركت مرج راهط احقاداً وثارات زادت الطين بلة وقوت المنافسة على النفوذ .

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هيا

كما قال قائل القيسية بعد مرج راهط .

بدأ التكتل القيسي اليماني في الشام ، ثم امتد بمرور الزمن وبالتدريج الى اجزاء الامبراطورية حتى وصل خراسان شرقا والاندلس غربا .

وقد وقف رجال الدولة وولاتها موقف الحياد اول الأمر من هذه القبائل . ولكن الظروف ، ولا سيما ظروف عصر الحجاج والفترة التي تلته ، أدت الى أن يدخل الولاة اولا في تيار العصبية ، فادى ذلك الى أن تتخذ التكتلات القبلية هيئة احزاب سياسية ، هذه تؤيد هذا الوالي وتتمتع بالنفوذ والجاه ، وتلك تأخذ موقفا سلبيا وتقصى عن المجال وتعقد الوضع وتأزم حتى لم يستطع الخلفاء المتأخرون تجنب هذا النزاع ، بل انجرفوا فيه بعد سليمان بن عبدالملك . فهبطوا من مكانهم السامي واصبحوا كأنهم رؤساء احزاب بدل ان يكونوا رؤساء دول . وبذلك ضعف التوجيه وتضعضعت وحدة الدولة المتمثلة في خليفتها ، وانصدعت دعامة الحكم الاموي .

ب - ولم تدرك القبائل أهمية الحكم المركزي ولم تفهم معنى الدولة ولم تتعود ذلك ، بعد فورة العصبية القبلية خاصة . ولم تتهذب في الحكم ، ولم تتكون لها تقاليد سياسية تناسب ما يقتضيه الوضع الجديد لامبراطورية واسعة ، بل استمرت تنظر الى مصالحها المحدودة وتعدها مقياسا في تصرفاتها . وذلك عامل ضعف خطير على الكيان العام .

ج - واحتقر الامويون بتأثير العصبية ، جميع الاقوام غير العربية ، وعدوهم في منزلة اجتماعية أدنى من العرب ، وابعدوهم لذلك عن السياسة والقيادة وفرضوا عليهم من الضرائب اكثر مما فرضوه على العرب . فالعصبية تبدأ للبيت الأموي ، ثم القبيلة ، وتتوسع أخيراً فتكون للامة ولا تتعدى ذلك . وقد كانت هذه النظرة طبيعية ومألوفة بالنسبة للشعوب الحاكمة في الشرق في ذلك الوقت ، إلا أن الاسلام دعا للمساواة بين المسلمين ، فكانت دعوته مثار كفاح ومقاومة لهذه النظرة ، فالاسلام هو الذي هيأ الاساس المشروع لتذمر الموالي ، ووقفت بعض الفرق بجانبهم وحاول بعض الفقهاء تأييد النظرة الاسلامية والدفاع عنهم . والحقيقة ان العرب من هذه الجهة هم الذين نظموا الموالي ووجهوا مقاومتهم للأمويين وتذمرهم منهم .

وهذه الاوضاع ادت الى عداء شديد بين الحاكم والمحكوم ، والى ان ينضوي الساخطون - مهما كانت دوافعهم - تحت لواء الاسلام فيكافحوا ويثوروا باسمه ، صادقين ومدعين ، في جميع الحركات ، من ثورة المختار حتى قيام الحركة العباسية .

د - ثم ان عدم وجود الوراثة في التقاليد السياسية القبلية وقف عقبة في طريق الامويين حينما حاولوا ادخال هذه الطريقة في الحكم . ووقفت التقاليد الاسلامية ضد الامويين في هذه الناحية أيضا . ولذا لم ينجح الامويون في ايجاد طريقة ثابتة لحل مشكلة الحكم ، فكان عصرهم فترة نزاع بين ثلاثة مبادىء :

(١) المبدأ القبلي الذي يعترف بالسيادة في فخذ او عائلة ، ولكنه لا يقبل الوراثة ، ويراعي مسألة السن والحنكة والنفوذ والكرم ويؤكد أن تكون الرئاسة لأقدر افراد القبيلة او البيت بدون ضرورة لتوريثها للابن . وقد أثر هذا الانجاه خلال العصر الاموي فكان سببا في اختيار مروان بن الحكم ومجيء مروان ابن محمد خاصة ، فالاول لم يكن سفيانيا ، والثاني كان مروانيا ولكنه لم يكن من الفرع الحاكم فهو ليس من اولاد عبدالملك بل ابن أخيه محمد .

(٢) المبدأ الاسلامي ، وهو يؤكد ان السلطة لله وأن ليس لفرد أن يتصرف بها بحسب مشيئته ، فهي لا تورث . وصار تأكيد حصرها في قريش تقليداً اسلاميا راسخا . إن ثورة الحسين (ر) تمثل هذا المبدأ وكذلك كانت ثورة ابن الزبير الذي أيده أبناء الصحابة في الحجاز . وانتصر هذا المبدأ بعض الانتصار في مجيء عمر بن عبدالعزيز الذي كان العهد إليه بتأثير الفقيه رجاء بن حيوة بالدرجة الاولى .

(٣) مبدأ الوراثة الذي ادخله معاوية بن سفيان ، وبموجبه جاء يزيد الاول ومعاوية الثاني واكثر الخلفاء الامويين .

ان وجود المبادىء الثلاثة هذه واهميتها في الجو السياسي يفسران لنا سبب البيعة لاكثر من واحد في آن واحد . فلم يكن نظام تعدد ولاية العهد مجرد رغبة شخصية ولا كان خطأة كما يتصور دائما ، وإنما كان ضرورة سياسية يقتضيها حرص المروانيين على عدم خروج الحكم من بينهم بعد ان اتعظوا بما حل بالسفيانيين ، فهم لا يريدون انتقال الخلافة الى فرع آخر او جماعة اخرى . كما ان رغبة الامويين واهل الشام عامة في أن تبقى الخلافة اموية كانت واضحة في العصر الاموي ، ولا سيما في الفترة التي تلت وفاة معاوية الثاني .

ومن ناحية أخرى نلاحظ انتشار المبادىء الاسلامية وتوسع أثرها

بالتدريج . وهذا منتظر لأنها تمثل قوة النمو والحركة في الدولة العربية . ويمكننا ملاحظة أثرها في عدة نواح .

فالاسلام انتشر تدريجيا انتشاراً محسوساً بين الشعوب المغلوبة ، لأنه رمز المساواة الاجتماعية (نظرياً في الاقل) ورمز التحرر من ضغط الأمويين بنظر بعضهم ، أو لأنه أسمى في مثله ومبادئه من غيره بنظر آخرين ، أو لأنه رمز النفوذ والسلطان والجاه بنظر فريق ثالث . يضاف إلى ذلك حماس الفقهاء والعلماء لهداية الآخرين . وتستر بعض الناس به ، ليخفوا ميولهم الحقيقية كما فعل الغلاة .

ونلاحظ زيادة أثر الدين في الاسرة الحاكمة وفي سياستها . فعبد الملك بن مروان نشأ نشأة دينية وتعلم الفقه . والوليد أهتم بتعمير المساجد وتزيينها . وسليمان بن عبد الملك كان إلى حد كبير تحت تأثير الفقيه رجاء بن حيوة . وعمر ابن عبدالعزيز اتبع المبادئ الاسلامية في حكمه واجتهد للتوصل بها إلى سياسة ترضي المتذمرين من عرب وموال وتهدئ الاحزاب . افليس من عجائب الاقدار أن يقتل الوليد الثاني وهو يقرأ القرآن ، متعمداً أن يلاقي حتفه وكلام الله بيده ، وأن يكون يزيد الثالث قدريا دعا للمساواة بين المسلمين دون تمييز وحفظ حقوقهم ومنع الظلم ؟

ولقد كان لانتشار الاسلام أثره في اظهار تيار الموالي وتوسيع خطره على الدولة الأموية خاصة وعلى الكيان العربي عامة .

فقد كثر عدد الموالي وتوسع نفوذهم بالتدريج وقد اتخذ تيارهم اتجاهات مختلفة . فبعضهم اسلم مؤمناً برسالة الاسلام وبدعوته للعدل والمساواة ، فاستنكر تمييز الأمويين بين العرب وغيرهم ، ومال إلى تيارات المقاومة بدخول صفوف الاحزاب المعادية . وقسم آخر تستر بالاسلام واصطبغ بصبغته لا يريد بذلك إلا منفذاً لبث دعاياته وتحقيق اغراضه . وهذا يصح على انصار تلك الحركات

الاجتماعية الموجودة في ايران والعراق قبل الفتح الاسلامي خاصة ، مزدكية بالدرجة الاولى ومانوية بالدرجة الثانيـة . فقد جاءت المانوية ثم المزدكية تحمل الثورة على الفوارق الاجتماعية والاستغلال والتباين المادي في المجتمع الساساني الذي تفصل طبقاته فوارق حديدية من النسب والثروة . ولما جاء الاسلام لم يبدل الاوضاع القائمة لغير المسلمين ، فان الامويين حالفوا الدهاقين واستخدموهم على حساب العامة، فكان ذلك مما جعل اصحاب هذه الحركات يحولون سخطهم الاجتماعي إلى الامويين وانصارهم ، وتقوى موقفهم لأن الامويين اجانب حاكمون . ورأى هؤلاء في التستر بالاسم الاسلامي وسيلة لحماية انفسهم ، وثقة في دعوة الاسـلام للعدل الاجتماعي ، يضاف إلى ذلك نبرة قومية خفية تسخط على السيادة الاجنبية . ولقد ظهرت هذه النزعة في الغلاة من سبئية وممن تحدر منهم من خرمية .

وقد وجدت هذه الفرق بين المسلمين من يستغلها ويشجعها في سبيل السلطان فالمختار بن أبي عبيد استغل السبئيـة وقرب الموالي والغلاة وفرض لهم العطاء كالعرب ، وتسامح معهم في مبادئهم ، وتكونت نتيجة ظهوره الفرقة الكيسانية . وهـذه الفرق جاءت بآراء فارسية غريبة عن الاسـلام كمبدأ الحلول والتناسخ والبدا ، واصطبغت بصبغة اجتماعية ثورية . وقد وجدت هي وجماعات الغلاة فرصتها في التستر باللواء العلوي الذي رفرف باسم المبادىء الاسلامية . ولكن الأئمة العلويين من ابناء فاطمة ابتعدوا عنهم وتبرءوا منهم . إلا انهم وجدوا قبولا في الفرع الحنفي (ابناء محمد بن الحنفية) فتكونت حركة سرية واسعة باسم العلويين بدأت بتنظيم أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، ثم استغلها محمـد بن علي العباسي . وبوفاة هاشم وبحسب وصيته ، انتقل ولاء الهاشمية اتباعه الذين تفرعوا عن الـكيسـانية إلى محمد بن علي العباسي وتكون الحزب العباسي السري بين الموالي ، وانتشر من العراق شرقاً فنجح في خراسان حيث كان يكثر الغلاة واتباع

بقايا الحركات الاجتماعية الفارسية . وقد شجع الدعاة العباسيون هذه الاتجاهات متجاهلين ما تنطوي عليه ، فلما تحقق املهم في السلطان كافحوها فانقلبت وبالاً عليهم كما سنرى .

وهناك اتجاه آخر لحركة الموالي ، وهو وجود نزعة قومية لدى الفرس خاصة وهذه كانت تحلم باحياء المجد الفارسي عند الموالي منهم وبايقاف توسع الاسلام على حساب الزردشتية عند من حافظوا على زردشتيتهم (وهؤلاء من أهل الذمة وليسوا من الموالي) . وقد ظهرت نزعة الموالي القومية بصبغة اسلامية فتظاهرت بانها تدعو إلى المساواة بين المسلمين مهما اختلفت عناصرهم ، وانه لا فضل لاحد على آخر الا بالتقوى . وهكذا انكر اصحاب هذه النزعة استئثار العرب بالسلطة ، وتفوقهم بالامتيازات ودعوا المساواة . وقد ظهر هذا الاتجاه في ايران خاصة . وقد توسعت هذه النزعة في العصر العباسي الى ما نسميه بحركة الشعوبية ، والزندقة ، لان فتح الباب امامها جعلها ظاهرة واضحة فكشفت عن عدائها للعرب ولدينهم وعن سعيها لضرب الاثنين ومكافحتها بكل وسيلة ، لان الاسلام وحماته من العرب في رأي الموالي مسؤولان عن انهيار مجد ايران ودينها .

وعلينا أن نبين هنا ان الاحزاب العربية الاسلامية هي التي نظمت حركة الموالي باشكالها المختلفة ، وساعدتها على أن تتخذ مظاهر مختلفة . فالاتقياء والفقهاء ايدوا الموالي في دعوتهم للمساواة بدون نظر إلى سر هذه الدعوة . واليهم يعود الفضل كثيراً في تشجيعهم على الثورات المختلفة كثورة ابن الاشعث . والخوارج قبلوا في صفوفهم عدداً من الموالي (وان لم يكن كبيراً نسبياً) وذهبوا الى حد بعيد في دفعهم حتى طوروا نظريتهم في الخلافة الى المساواة بين العرب والموالي ، فجوزوا امامة غير العربي كما قالوا بامامة أي عربي يجمع المؤهلات اللازمة .

وقد مر بنا أن بعض العلويين استغلوا حركات الغلو وهي بقايا الحركات الاجتماعية الايرانية القديمة وفسحوا لها المجال. فالمختار (الذي قام باسم العلويين) شجع السبئية وشجع آراءهم الغريبة وقرب الموالي على حساب العرب. والفرع الحنفي استغل الكيسانية وشجعهم وقد جاء هؤلاء بآراء فارسية بعيدة عن الاسلام وادخلوها، مثل التأويل، والتأكيد على ضرورة فهم باطن النصوص المقدسة وأن لا فائدة من ظاهرها، وأن الباطن لا يعرفه إلا الامام ويكفي إذن معرفة الامام وذلك جوهر الدين «فالدين طاعة رجل». وتوصلوا بذلك إلى تعطيل النصوص والشريعة. بل ذهبوا إلى نقطة تحول خطرة وهي انه لا يشترط في الامامة الوراثة بل يكفي العلم، فكل من احاط بعلم الامام من تلاميذه يكون اماما ولا حاجة للنسب، وهذه هي النقطة التي استغلها الهاشميون والعباسيون، وهي سر نقل الامامة من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية العلوي إلى محمد بن علي العباسي، لان محمد بن علي بحسب ما وصلت اليه، كان تلميذ أبي هاشم وعنه أخذ العلم. لقد ذهب بعض الغلاة بعد الدعوة العباسية إلى بيت القصيد فنقلوا الامامة إلى رجال من الفرس وبذلك حققوا امنيتهم الغالية التي طالما سعوا اليها فنادوا بامامة أبي مسلم الخراساني، وثاروا لمقتله، ثم نقلوها بعده إلى غيره.

والدعوة العباسية إنما نبتت ونمت بمعونة الغلاة أول الامر وكان الجيش الذي دخل مرو عاصمة خراسان بقيادة أبي مسلم من الهاشمية (الغلاة - ولا يخفى اللعب على لفظ الهاشمية). وكان مجيء العباسيين فاتحة فترة نشاط قوي للخرمية (أو المزدكية بشكلها الجديد) والزندقة (أو المانوية بشكلها الحديث). فكان ذلك فاتحة فترة صراع اجتماعي جديد في غاية الخطورة كما سنرى.

نلاحظ مما مر، أن تيار الموالي كان منبعثا عن اتجاهات مختلفة. منها النزعة القومية (بمعناها التأريخي الذي يشير إلى الشعور بالكيان والميل إلى

التحرر) التي تريد إعادة سيادة ايران المانوية وحريتها، ومنها الحركات الاجتماعية الدينية الايرانية السابقة التي قاومت الاوضاع السائدة في المجتمع الساساني واستمرت تقاوم هـذه الاوضاع إذ لم تتغير في العصر الاسلامي . ومنها النزعات الدينية المانوية التبشيرية والزردشتية التي شعرت بخطر المبادئ الاسلامية على كيانها . وقد اتخذت هـذه من دعوة الاسلام للمساواة وموقف الأمويين حجة للتذمر والثورة على بني أمية وعلى السلطان العربي . أما الرأي السائد وهو أن بني أمية بظلمهم وسواد صحيفتهم مسؤولون عن هذه الثورات فيحتاج الى تدقيق كبير ، ولعلي أبين بعض الملاحظات التوضيحية :

لقد كانت النظرة السياسية السائدة في الشرق الأدنى عند الفتح الاسلامي ، والتي سار عليها الفرس والبيزنطيون تعد البلاد المفتوحة أرضها وأهلها ملكاً للفاتح يتصرف به كما يشاء . فمن يزرع الارض من السكان - بناءً على ذلك - يدفع ضريبة التاج المالك للأرض شرعاً (بحق الفتح لها) ، وهذا يقابل الخراج. ويدفع كل فرد ضريبة عن رأسه ترمز الى عبوديته وخضوعه للغالب ، وهي ما يساوي الجزية . وهذا ما كان يدفعه سكان العراق للساسانيين .

وإذن فلا محل للمساواة ، ولا مجال للحديث عن اشراك المغلوبين في الحكم أو وضعهم في صفوف الاسياد . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان عامة الفرس من فلاحين وحرفيين في ايران يدفعون ضريبة الجزية للتاج الساساني ، كما كان عامة الفلاحين في وضع عبودية تحت رحمة العظماء والنبلاء والاشراف الفرس .

وبذلك انعدمت المساواة في ايران ذاتها واقتصر الحكم والادارة والنبل على طبقات الأشراف ورجال الدين والمقاتلة . وكان ذلك من أهم الاسباب لظهور المانوية والزدكية. كما أن التسامح الديني كان معدوماً تجاه الاديان الفارسية لتحكم الزردشتية ومكافحتها لكل دين آخر يظهر في ايران ، ولذا تحولت المانوية

والمزدكية الى حركات اجتماعية سرية .

ولما جاء الاسلام ووضعت التنظيمات المالية زمن الراشدين ، لم تحدث هذه تبدلاً أساسياً في الاوضاع فقد فُرضت في العراق ضريبتا الجزية والخراج، وبقيتا تحملان معناهما القديم من الخضوع للشعب الغالب . أما في ايران ففرضت ضريبة واحدة هي ضريبة الجزية الساسانية ولكنها صارت الآن عامة على الجميع . ومعنى ذلك أن المغلوبين عُدوا طبقة واحدة بنظر المسلمين . ولكن هناك فرق أساسي بين النظرية القديمة والنظرية الاسلامية ، وهو أن الفارق بين الغالب والمغلوب هو الدين لا العنصر . وبذلك ترك المجال مفتوحا للمغلوبين ليرتقوا الى صفوف الغالبين ويتمتعوا بامتيازاتهم بدخولهم في الاسلام ، ولم يكن هذا ممكنا في الوضع الذي سبق ظهور الاسلام .

ولما جاء الامويون ساروا على النظام المالي الذي وضعه عمر بن الخطاب ، وأعفوا الداخلين في الاسلام من الجزية والخراج أول الأمر . ولكنهم لاحظوا تقلص الوارد تدريجياً نتيجة انتشار الاسلام ، وتقلص الاراضي الخراجية التي صارت تتحول الى عشرية بامتلاك العرب لها ، وبتقلص أراضي الدولة (الصوافي) نتيجه الهبات الكثيرة ولذا كان لابد لهم من التفكير بزيادة الوارد ، ولم يجدوا في نظام عمر ما يحل مثل هذه الازمة ، فرجعوا للعرف المحلي واحيوا بعض الضرائب القديمة المهملة كهدايا النوروز والمهرجان ، والضرائب على الحرف والصناعات ولكن هذا لم يحل الازمة، فحاول الحجاج معالجتها بان استمر يفرض الجزية والخراج على المسلمين الجدد ، ويفرض الخراج على العرب الذين يمتلكون أراضي خراجية ، فارتفعت الضجة الكبرى من العرب أولاً ومن الموالي ثانياً ، وقد أخفى العرب ضجيجهم وراء ضجيج الموالي واتهموا الحجاج بمعارضة الدين . وكاد نظام الحجاج يعم في القسم العربي من الامبراطورية ولكن مقاومة الأهلين

حالت دون ذلك . وقد أنفذت تدابير الحجاج الخزينة ولكن المقاومة لها كانت شديدة . واستمر الوضع حتى مجيء عمر بن عبد العزيز لحاول التوفيق بين مصلحة الخزينة والمبادئ الاسلامية ، فأدخل نظرية جديدة تغير نظام عمر بن الخطاب ولكنها نظرية تدل على عبقرية وكفاية ، إذ عد الجزية وحدها رمز الخضوع ، يدفعها الذمي ويعفى منها بعد اسلامه . ثم جعل أرض الخراج ملك الامة الاسلامية ، وقال إن الخراج إنما هو ايجار لها وهو حق الامة كلها ، ولذا يلزم كل من يمتلك أرضا خراجية أن يدفع هذا الايجار بدون نظر الى الدين ، ونفذ هذا في سنة ١٠٠ هـ . وبذلك أبقى وارد الخراج ثابتا للخزينة ، لا يتأثر بانتشار الاسلام .

وقد كان نظام عمر بن عبد العزيز مناسباً للعراق كل المناسبة لأن وارد الجزية منه قليل ، والوارد الرئيس يأتي من الخراج فلا تتأثر الخزينة بمثل هذا التدبير . ولكن الجزية مهمة بالنسبة لوارد مصر ، ولذا أدى تدبير الاسلام (إن قبلنا روايات المؤرخين) وانتشاره الى ارتباك وارد مصر ، بل قصوره عن سد الحاجة ، للنفقات المحلية من اعطيات ورواتب . أما خراسان فلم يكن النظام ملائما لها . ففي خراسان كانت توجد ضريبة واحدة بدل الجزية والخراج ، وقد تحالف الدهاقين مع الفاتحين وعاونوهم وجعلوا هذه الضريبة على عامة الناس وأنقذوا أنفسهم منها ، وذلك بأن فرضوها على الرؤوس لا على الاراضي وبذلك حافظوا على تراثهم وكيانهم الاجتماعي ووضعوا العبء على الطبقة العامة وبذلك استمر الوضع الاجتماعي السيء كما كان زمن الساسانيين . وكان الدهاقين يستفيدون من قيامهم بالجباية ولا يستحسنون انتشار الاسلام لأن للموالي في وضع أحسن من الذمي ، فهم لا يرحبون بذلك اجتماعياً ، كما أن اعفاء الموالي من الضريبة يضر بمصلحتهم المادية . لذلك كانوا يعرقلون كل محاولة للاصلاح . والمهم هنا أن

نظام عمر أثر تأثيراً قوياً في الوارد لأن الاسلام ينقص الوارد نتيجة اعفائه من الضريبة الوحيدة . ومما مر يتضح أن نظام عمر بن عبد العزيز بشكله الذي طبق به في خراسان لا يخدم الخزينة . ولكن النظام في ذاته ظاهرة تدل على ازدياد أهمية الموالي وخطرهم وعلى شعور الامويين بمشكلتهم وسعيهم لمعالجتها بعدل وحزم معالجة اساسية .

ولن نستغرب من محاولة يزيد الثاني الذي جاء بعد عمر بن عبد العزيز أن يعيد الاوضاع السابقة له وان يهمل تدابيره . ولم يكن للامويين إلا أن يتبعوا نظامه أو نظام الحجاج ، ولكن نظامه انتصر في الأخير حتى وجدنا نصر بن سيار يحاول تطبيقه بشكل صحيح ، بان فرض ضريبتين في خراسان ، ضريبة الخراج على الارض يدفعها كل مالك ، وضريبة على الرءوس يعفى منها من دخل الاسلام ، وبذلك اصلح نقطة ضعف مهمة في تطبيق ذلك النظام في خراسان . ولكن اصلاح نصر جاء متأخراً لاستفحال الدعوة العباسية .

ومما مر نلاحظ أن التهويلات التي تعج بها كتب التأريخ قديمة وجديدة (آخرها فان فلوتن - السيادة العربية) ناتجة عن تصوير التدابير الشاذة وإغفال القواعد أو عدم فهم لأسس النظام الاموي . وكذلك نلاحظ أن نظام الضرائب الأموي كان استمراراً لنظام الراشدين الذي كان رهيناً بظروفه التي وضع فيها فلما تبدلت الظروف جرب نظام الحجاج لحل الازمة فأثار من الضجة ما أدى الى الحل المتزن الذي وضعه عمر بن عبد العزيز والذي نجح في الأخير . وهذا ما توصلت اليه ببحثي الخاص وكلما زدت تدقيقاً زدت يقيناً بصحة النتائج المذكورة .

أما ما يذكر عن الامويين من احتقار الموالي ، فلا رد عليه في اساسه ولكني الاحظ انه ينطبق على بداية الدولة الاموية ، حين كان عددهم قليلاً وحين كانت التقاليد العربية في أوجها . ولا ننسى توجيه عمر بن الخطاب الذي أراد أن يكون

العرب أمة عسكرية مجاهدة لا تختلط بالأعاجم الذين انهاروا اجتماعياً قبل أن ينهاروا سياسياً ، ولذلك شيد المعسكرات للعرب لئلا يتأثروا بهم . ولكن العرب اتصلوا تدريجياً بالموالي وبغيرهم وتأثروا بهم وبترفهم وعاداتهم . وأفسحوا لهم المجال بصورة تدريجية فلم يقصروهم على دواوين الخراج ، بل ولّوهم الكتابة والرسائل فأبو الزعيزعة كان كاتب رسائل عبد الملك وفي منزلة سامية عنده . وسالم بن جبلة مولى هشام كان في منزلة عالية عنده . وعبد الحميد الكاتب كان كبير الحظوة عند مروان الثاني . وكان طارق بن زياد الذي هزم القوط في الاندلس مولى . كما كان حيان النبطي من رجال الحجاج البارزين في أعمال العمران في العراق . وكان مقاتل بن حيان النبطي من القادة في الجبهة الشرقية . ثم ألا يكفي أن يكون اثنان من خلفاء بني أمية المتأخرين من أولاد الاماء ؟

ومن هذا يتضح أن دخول الموالي في الوظائف وفي الامور العامة بدأ في العهد الاموي . ولا نسمع بمشكلة الموالي في مصر والشام ، وتقتصر هذه المشكلة الخطرة على العراق وايران ، وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه من أن النزعات القومية والدينية والاجتماعية الايرانية هي السبب في احداث هذه المشكلة بالدرجة الاولى . ولعلنا نستبق التسلسل التأريخي ونبين أن هذه النزعات نفسها هي التي أبقت مشكلة الموالي وزادتها خطورة واتساعاً في العصر العباسي الذي زالت فيه الفوارق العنصرية واشترك الفرس فيه اشتراكاً مباشراً في الحكم .

ويتصل بما مر القول بان الدولة الاموية كانت بدوية ، وان العلم والثقافة نهض بها الموالي . وهـذا قول يعود انتشاره الى كثرة تكراره لا الى اساس تأريخي . فالعصر الاموي كان عصر حركة ثقافية نشيطة . فيه بدأت العلوم الاجنبية تتسرب الى العرب مشافهة بالمناقشة مع المسيحيين خاصة وأحيانا بالترجمة كما فعل خالد بن يزيد ، وكما حاول عمر بن عبد العزيز وهشام

ابن عبد الملك. أما العلوم الدينية من حديث وفقه وتفسير وما يتصل بها كالتاريخ فقد نهض بها العرب ، وكان جل القائمين بها منهم ولم يبدأ الموالي بالمساهمة بشكل ملموس إلا بعد أن عربت الدواوين أي بعد ان تعربوا ثقافة ولغة . ومن الغريب أن نشير الى ثقافة الفرس وتفوقهم مع أن دراسة تأريخهم توحي بأنهم لم يتفوقوا إلا في التفكير الديني في العصر الساساني . وأما العلوم فكانوا قد بقوا فيها عيالاً على اليونان والهنود الى آخر دولتهم . لقد تأثر العرب في العصر الاموي باسلوب الكتابة الفارسية ، أما علم الحديث والفقه والتفسير والتأريخ والعروض والقوافي فكلها عربية الأصل والمنشأ . وأما الشعر فقد كان الميدان فيه للعرب . وليس هذا محل الاسهاب في هذا الموضوع . ويكفي أن نذكره للتنويه لا للتوضيح .

لقد انهارت الدولة الاموية لتآكل قوة الاتجاهات القبلية ولاستعلاء الاتجاه الاسلامي وتعاونه مع اتجاه الموالي . أفلا نعد قوة المبادىء القدرية في الشام ذاتها ومجيء خليفة قدري مثل يزيد الثالث وانتشار مبادىء الخوارج اليها دليلا على أفول نجم التقاليد القبلية وما تمثله ؟ ولئن تعاون التيار الاسلامي مع تيار الموالي إنه تعاون سلبي للقضاء على خصم مشترك ، ولكن الغايات مختلفة وهنا العقدة الكبرى التي ورثها العباسيون ولم ينجحوا في حلها .

لقد انهارت الدولة الاموية أمام جهود العباسيين وتحت ضربات دعوتهم وحركتهم التي دامت ثلث قرن .

وقد قامت الدولة العباسية على أسس معينة واضحة . فقد اتخذت حق بني هاشم الشرعي في الخلافة أساسها السياسي ودعت لارجاع الحق لأهله بدون الجهر باسم المدعو له . ونادت بتحسين أوضاع الموالي ومساواتهم بالعرب واشراكهم في الامر متخذة ذلك جوهر برنامجها الاجتماعي . ووعدت بالعدل

واتخاذ السنة والكتاب دستوراً يستهدي به إمامها في دولته .

ومن جهة ثانية أخذت الدعوة العباسية تسعى لجمع كل عناصر التذمر تحت لوائها وتسييرها لخدمتها - أثارت قوى كامنة خطرة . فقد بعثت الوعي العام عند الفرس ووسعته ، وقوت فيهم روح التوثب والسيادة ، بل روح احياء المجد القديم المفقود .

كما انها أثارت الحركات الاجتماعية ونشطتها ووسعتها ، ولاسيما حركة الخرمية التي تمثل الثورة على الاوضاع الاجتماعية القائمة . والخرمية لم تكن سوى الحركة المزدكية الثنوية بعد أن حاولت التستر بالاسلام والاستفادة من بعض مبادئه في سبيل حماية نفسها وتوسيع نطاق نشاطها . وقد ذهب بعض الدعاة الى أبعد من ذلك فأحيوا في الزردشتية الامل في بعث دينهم وفي ظهور المنقذ الذي بشر به زردشت ، حتى عد بعض الزردشتية أبا مسلم ذلك المنقذ .

وأهدف العباسيون عند مجيئهم الحكم الى عدة أمور . فقد أرادوا أن يتلافوا خطر الانقسام العنصري الواضح في العصر الاموي وأرادوا أن يخلقوا جواً من التعاون والتفاهم (على اساس اسلامي) بين العرب والفرس ليتم الاستقرار وليحققوا ذلك نراهم يفسحون المجال الفكري والاجتماعي والسياسي للفرس . كما سعوا لتحقيق التعاون بين الدين والسياسة ليضربوا التقاليد والعصبية القبلية ، متغلبين في ذلك بالمشكلات التي اضعفت الامويين .

ولكن العباسيين أخفقوا في مجال تحقيقهم للدعوة التي اظهروا كرماً في تقديمها وأخفقوا في تحقيق أهدافهم التي أملوها نتيجة عوامل متعددة منها خطؤهم في فهم بعض الاوضاع ، وعدم استقامة سياستهم ، وبتأثير التيارات التي أثاروها ، وبسبب طموح الفرس .

فقد تراجع العباسيون عن كثير من وعودهم . فلم يسيروا على الكتاب

والسنة بل استخدموا الدين وسيلة لتبرير حكمهم المطلق ولتقوية كيانهم ومركزهم ولتخدير الرأي العام . وبذلك خيبوا أمل الآملين في هذا الاتجاه . كما انهم استأثروا بحق الهاشميين في الخلافة وجعلوه بصورة طبيعية في آل العباس ، وتركوا أبناء علي ولد عمهم وضيقوا عليهم أكثر مما فعل الامويون . فأدى ذلك الى ثورات مستمرة قام بها العلويون ، والى دعوة سرية خطيرة وهي الحركة الاسماعيلية التي زعزعت كيانهم وشطرت العالم الاسلامي ردحاً من الزمن وكادت تقضي على دولتهم . ثم انهم أبقوا الوضع الاجتماعي الطبقي في ايران على ما كان عليه ولم يتخذوا اي تدبير جوهري لتخفيف الضغط الاقتصادي والاجتماعي على العامة في ايران برغم وعودهم الكثيرة باصلاح وضعها . وهذا قوى تذمر العامة وادى الى انتشار الحركة الخرمية بشكل لا سابق له في تأريخ ايران ، حتى أصبحت هذه الحركة رمز الصراع التحرري الذي تمثل في سلسلة ثورات على العباسيين طوال العصر العباسي الاول .

وأخفق العباسيون في السياسة العملية . فانهم قربوا الارستقراطية من الفرس والطبقة المثقفة منهم واشركوهم في الحكم آملين بذلك ان يحققوا التعاون المنشود متوقعين أن ذلك كل ما يتمنى هؤلاء . ولكن طموح الارستقراطية الشخصي ، وطموحهم القومي في بعض الاحيان أدى الى الاصطدام المتكرر بين العباسيين وممثلي الارستقراطية (الوزراء خاصة) والى تنكيل العباسيين بهم خوفاً على الدولة والسلطان . فساءت العلاقة بالتدريج بين الجهتين حتى فقد أمل التعاون بعد المأمون .

ومعنى هذا ان العباسيين وجهوا لوم العامة وتذمرهم الى دولتهم وأملوا ضبطهم بتعاون الارستقراطية معهم بسبب وجود النزاع الاجتماعي بين هؤلاء العامة . فلما اصطدموا بالارستقراطية ، أصبح السخط عاما ، وجعلوا الفرس

يفكرون بتسوية اختلافهم الداخلي وتوجيه الجهود مجتمعة على العباسيين . وقد ظهرت بوادر ذلك في تأييد بعض الارستقراطية لحركة بابك الخرمي ثم اتضح في قيام الامارات الظاهرية والسامانية المستقلة تقريباً في ايران في القرن الثالث الهجري .

وقد نجح العباسيون في ضرب الاتجاه القبلي، ولكنهم أحقدوا العرب عليهم ولاسيما بتقريبهم للفرس . في حين ان فسح المجال أمام الفرس لم يرضهم بل ساعد على ظهور نواياهم القومية . فبرزت حركة الشعوبية وهي حركة تمثل صراعاً اجتماعياً ثقافياً عنيفاً بين العربية والاعجمية . وانتشرت الزندقة ، وهي تمثل نزاعاً سياسياً دينياً بين الديانات الفارسية والطموح الفارسي وبين الروح العربية والدين الاسلامي ، سرّ مجد العرب وأساس سلطانهم . وحصل تكتل قوي في البلاط العباسي بين ممثلي الاتجاه العربي والاتجاه الفارسي فكان ذلك مما زلزل التوازن الذي حاول المنصور إنشاءه بين العنصرين العربي والفارسي. وبذلك عاد الصراع بين الموالي والامويين قوياً عنيفاً بشكل جديد بين السلطان والقومية الفارسية . وقد يكون غريباً أن نقول ان الارستقراطية الفارسية تعاونت مع الامويين مدة أطول من تعاونها مع العباسيين ، ولم تتخل عن بني أمية إلا بعد تدابير نصر بن سيار المالية التي فرضت ضريبة على الاراضي . ولكن الغرابة تزول إذا تذكرنا فورة الروح الفارسية على أثر الدعوة العباسية ومجيء العباسيين .

ثم ان الاضطراب الناتج عن زوال التوازن وضعف التعاون بين الفرس والعرب وعن خيبة أمل الارستقراطية الفارسية في الحصول على ما تريد، وعن ثورة الجماهير الايرانية الواسعة مع بابك الخرّمي ، وعن تضعضع كيان العرب بعد مقتل الامين، وعن عدم الثقة بولاء الجند الفارسي العربي العباسي ، وعن الخطر البيزنطي الذي يهدد الحدود العباسية - كل ذلك استوجب حلاً سريعاً حاسماً للارتباك الذي

يهدد كيان الدولة بادخال عنصر عسكري جديد فتي يعتمد عليه الخليفة في تثبيت قوة دولته ، ويكون في وضع يعلو على العنصرين الاولين العرب والفرس. وهكذا دخل الترك الميدان في خلافة المعتصم . واقتضت الضرورة والخبرة أن يكون هذا العنصر بعيداً عن جو الدسائس والمناورات السياسية التي تعج بها العاصمة بغداد ، وأن يكون في مقر بعيد عن موطن الجند القديم المتذمر المتذبذب في ولائه ، وأن يكون بعيداً عن ترف العاصمة واغرائها ليبقى فتياً وليكون سنداً للخلافة ، فأدى ذلك الى اختيار سامراء وجعلها قاعدة للدولة بدل بغداد ، ومعنى تبديل العاصمة تبديل الاسس التي تمثلها العاصمة القديمة ، وهذا زعزع أسس الدولة العباسية و كان عاملاً اساسياً في ارتباكها وضعفها فقد نجحت القوة العسكرية الجديدة في كسب الحروب ولكنها مع بعدها عن التقاليد الحضرية اخفقت إخفاقاً ذريعاً في توجيه سياسة جديدة أو في حفظ الادارة المثبتة .

ومن ناحية ثانية كان للتطورات الاقتصادية أثرها، فالاهتمام بالصناعة وتوسعها وزيادة النشاط التجاري اديا الى ظهور طبقة مثرية من التجار واصحاب المصانع من العرب والفرس . وإذا لاحظنا التعاون الظاهر ، بصرف النظر عما ينطوي عليه ذلك التعاون ، بين الارستقراطية الفارسية والعربية في العصر العباسي الاول ، وخيبة الحركات الاجتماعية الفارسية التي اقتصرت بدعوتها على الفرس أدركنا سر التحول فيها ، إذ أخذت توجه دعوتها الى الطبقات العامة من فرس وعرب وغيرهم ضد السلطان العباسي . تتكامل هذا الاتجاه في اخطر حركة وأوسعها وهي الحركة الاسماعيلية .

وإني اشير أخيراً الى اتجاه ثقافي له صلة بما مر . فقد فسح العباسيون المجال للفرس في الناحية الثقافية . وإذا تذكرنا اتجاهاتهم الدينية والسياسية استطعنا أن نفهم انهم قاموا بحركة تأليف وترجمة شعبية واسعة المدى في الدين والادب لأحياء تراثهم الديني والأدبي ولاسيما فيما يتعلق بالمانوية والمزدكية وفيما يتصل

بتأريخهم، ورووا القصص والأخبار عن ملوكهم الماضين - وأكثرها اسطوري - ليزيدوهم روعة وليرفعوا من شأن ماضيهم. ونقلوا كثيراً من الآراء المانوية والكتب المانوية والديصانية والمرقونية ليتخذوها وسيلة لمقاومة العربية والاسلام، وربما كان المانوية انشط من غيرهم في هذا.

وتلا هذه الترجمة والدعاية مناقشات دينية واسعة هددت الاسس الاجتماعية والمبادئ الاسلامية، فصار الخلفاء ولاسيما المهدي يهتمون بالرد عليها ويطلبون الى الفقهاء والمتكلمين أن يقوموا بذلك. وأدى ذلك ايضاً الى تضييق مجال الحرية الفكرية على أعداء الاسلام، الزنادقة خاصة، بشكل لا سابق له، وذلك لما لاحظوا من تأثير لهم في العامة البسطاء.

وأدى هذا التوثب العدائي الى تشجيع المتكلمين والمعتزلة الذين تسلحوا بخير اساليب الجدل والمنطق المعروفة آنئذ فكانوا انشط واقدر من غيرهم على الرد. وأخذت الدولة تتدخل في قضايا العقائد العامة حفظاً للكيان العام. وربما كان ذلك سبباً مهماً من اسباب اتخاذ الاعتزال مذهباً رسمياً في خلافة المأمون والمعتصم والواثق. كما ان هذه المناقشات الجدلية كانت دافعاً مهماً من دوافع الاعتناء بترجمة كتب الفلسفة للحاجة اليها في الحياة العامة.

هذه ملاحظات عامة شاملة جردتها من ذكر المصادر ومن سرد النصوص لأنها تمثل آراء تجمعت نتيجة الدراسة والتدريس، لعل فيها الجديد، ولعل فيها ما يفيد، فان لم يكن فيها هـذا ولا ذاك، فلعل فيها ما يدعو الى اعادة التفكير فيما ورثنا من آراء لا يسندها إلا انهـا قيلت وتكرر قولهـا. والله يعلم أني توخيت الدقة والعلم. وهو الموفق الى الخير.

عبد العزيز الدوري

١٣/٥/١٩٤٩